

وليد الخالدي: تحية

### III

## عودة إلى سقوط حيفا\*

#### تقديم

منذ أن كتبت هذه المقالة قبل نحو نصف قرن تقريباً، ظهرت إلى العلن مواد أرشيفية كثيرة، فضلاً عن كتابات تاريخية أخرى مهمة، بما في ذلك مذكرات أشخاص شاركوا في الأحداث. وقد أضاف هذا كله تفاصيل جمة إلى قصة سقوط حيفا، كما أنه أكد الاستنتاجات الرئيسية الواردة في المقالة المنشورة في سنة ١٩٥٩، والتي يمكن تلخيصها بما يلي: (أ) هجوم الهاغانا الشامل على أحياء حيفا العربية في ٢١ - ٢٢ نيسان / أبريل كان جزءاً من هجوم عسكري عام جديد لإقامة دولة يهودية في فلسطين بقوة السلاح في أعقاب توصية الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، واستباقاً لانهاء الانتداب البريطاني في ١٥ أيار / مايو ١٩٤٨؛ (ب) كان الهجوم منسقاً بدقة بين القيادة العليا للهاغانا والقائد العسكري البريطاني الأعلى في حيفا، الميجور جنرال هيو ستوكويل، قائد الفرقة السادسة المحمولة جواً (التي ذاع صيتها في الحرب العالمية الثانية)، والتي كان مقر قيادتها في حيفا؛ (ج) استمرار التواطؤ الأنجلو - صهيوني طوال يومي القتال وخلال المفاوضات العربية - اليهودية التي أعقبتها، والتي رعاها ستوكويل كي ينتزع من العرب قبولاً بشروط الاستسلام التي وضعتها الهاغانا؛ (د) الخروج الجماعي لسكان حيفا العرب، والذي بدأ في ٢٢ نيسان / أبريل، كان ردة فعل تلقائية جزاء التكتيكات التي اتبعتها الهاغانا خلال الهجوم، والتي كانت مزيجاً من الإرهاب العسكري والحرب النفسية؛ (هـ) الزعم الصهيوني / الإسرائيلي أن خروج سكان حيفا المدنيين كان جزءاً من استراتيجية عربية لإخلاء البلد من السكان العرب استباقاً لغزو الجيوش العربية النظامية

\* المصدر: Walid Khalidi, "The Fall of Haifa Revisited", *Journal of Palestine Studies*, vol.

XXXVII, no. 3 (Spring 2008), pp. 30-58.

ترجمة: أحمد خليفة.



فلسطين في ١٥ أيار / مايو، أو أنه كان استجابة لأوامر محددة للغرض نفسه من القيادة الفلسطينية، وهو زعم لا أساس له.

تضع مقالة سنة ١٩٥٩ احتلال حيفا في سياق هجوم صهيوني جديد عام جرى شنه في مطلع نيسان / أبريل لتمهيد الطريق أمام إعلان قيام دولة إسرائيل من خلال تعزيز وتوسيع المناطق الواقعة تحت الاحتلال الإسرائيلي وتطهيرها من العرب، لكن المقالة تخلو من ذكر اسم الهجوم. غير أنه بعد عامين، كشف مؤلف المقالة [أي الخالدي] الغطاء عن اسم الهجوم وتفصيلاته: "الخطّة دالت"، التي كانت فعلاً خطة حربية شاملة غايتها إقامة الدولة اليهودية في سنة ١٩٤٨. وقد تضمنت هذه الخطّة، وبعبارة لا لبس فيها، نهجاً وأمر عمليات مذكورة بتفصيل مُحكم، واشتملت على عمليات مركزية متعددة غايتها احتلال مناطق أو مدن معينة، وأطلق على كل عملية منها اسم رمزي (code) محدد. أمّا عملية احتلال الأحياء العربية في حيفا فسميت في البداية "عملية مسبرائيم / المقص"، ثم بُدّل الاسم لاحقاً إلى عملية "حميتس / خميرة". وأوكل تنفيذ كل عملية في خطة دالت إلى أحد الألوية الستة التابعة لـ "سلاح الميدان" في الهاغانا ("حيس"). ويمكن طلب المساعدة من احتياط الهاغانا الاستراتيجي (الألوية الثلاثة التابعة للبالماخ، القوة الضاربة للهاغانا). وحُدّد لكل لواء من ألوية "سلاح الميدان" مهمات وأهداف معينة، مدينية وريفية، داخل وخارج الحدود التي خصصتها الأمم المتحدة للدولة اليهودية، وذلك ضمن الإطار والخطوط الموجهة العملانية الواردة في الخطّة دالت. وكانت مهمة احتلال حيفا العربية ملقاة على عاتق لواء كرملي التابع لـ "سلاح الميدان"، والمتمركز في حيفا.<sup>١</sup>

لقد خُصّص جزء كبير من مقالة ١٩٥٩ لإيضاح مدى التواطؤ الأنجلو - صهيوني فيما يتعلق بسقوط المدينة، لكن تحليل المؤلف آنذاك كان إلى حد ما حدسياً، ومبنياً على الربط بين وثائق وروايات كانت متاحة آنذاك. غير أنه ظهرت منذ ذلك الوقت معلومات قاطعة تؤكد هذا التواطؤ.

في أواخر شباط / فبراير ١٩٤٨، طلب اثنان من شخصيات اليشوف البارزة هما آبا حوشي وهاري بيلين مقابلة الجنرال ستوكويل في حيفا. وكان حوشي أحد قادة الحركة العمالية الأقوياء وعلى علاقة وثيقة بالهاغانا، الذراع العسكرية للوكالة اليهودية،<sup>٢</sup> بينما كان بيلين ضابط الارتباط بين الوكالة اليهودية والجيش البريطاني في المدينة. وبدأ حوشي بالقول إن ما حضرا لمناقشته قد يبدو "جنوناً": كان مطلبهما، بصراحة شديدة، أن "تسلموا المدينة لنا"، لأن حيفا على أي حال مخصصة للدولة اليهودية بموجب قرار التقسيم. وأضاف أن إطالة أمد الوضع القائم يمكن أن تؤدي إلى "مواجهة بين الهاغانا والجيش البريطاني". وبعدما استوعب ستوكويل الصدمة المتأتية عن هذا التهديد المبطن، طلب "مهلة للتفكير في الأمر".<sup>٣</sup>

وفي الأسابيع التالية، عُقدت أربعة لقاءات بين الجانبين، وفي ١٨ نيسان / أبريل، طلب ستوكويل من حوشي وبيلين أن يحضرا إلى مكتبه، وأخبرهما أنه تشاور مع رئيسه، الجنرال السير غوردون ماكميلان، القائد العام لجميع القوات البريطانية في فلسطين بشأن طلبهما،



وأنه مستعد الآن لقبوله، لكنه قلق بشأن "خطوط إجلاء الجيش البريطاني"، فأكد له حوشي أن الهاغانا ستساعده "في تأمين هذه الخطوط."<sup>٦</sup> وعلى ما يبدو، لم يشعر أي من الجانبين بحاجة إلى القول إن أي تهديد لانسحاب القوات البريطانية ليس متوقعاً من الجانب العربي وإنما من الجانب اليهودي: إما من الهاغانا نفسها، وإما من الجماعتين "المنشقتين"، الإرغون وشتيرن. وهكذا عُقدت صفقة: حيفا في مقابل تأمين الجلاء البريطاني عبر ميناء حيفا.

ثم انتقل الحديث إلى أمور محددة. سأل ستوكويل عن الوقت الذي تحتاج إليه الهاغانا "لإنجاز احتلال المدينة بأسرها"، فكان جواب حوشي السريع: "ثماني وأربعون" ساعة. رأى ستوكويل أن هذا ادعاء "طموح"، وأن الهاغانا لن تستطيع تحقيق ذلك في "أقل من أسبوع". وعندئذ تحدى حوشي الجنرال بأن يدخل في رهان معه "... لنقل، على زجاجة ويسكي؟" وسجل في دفتر ملاحظاته: "ستوكويل - أسبوع؛ ١ - ٢٤ - ٤٨ ساعة." ومن المثير للاهتمام أن مدينة طبرية المختلطة من ناحية السكان، والواقعة في الطرف الشرقي من مرج ابن عامر الذي تقع حيفا في طرفه الغربي، كانت قد سقطت في ذلك اليوم، ١٨ نيسان / أبريل. وكان هجوم الهاغانا في طبرية، وهو الهجوم الأول على مدينة عربية بحسب خطة دالت، قد بدأ في ١٦ نيسان / أبريل؛ وبعد يومين، كانت المدينة قد صارت في قبضة الهاغانا. وفي ذلك اليوم (١٨ نيسان / أبريل) كانت القوات البريطانية العاملة تحت قيادة ستوكويل قد "وُفرت" وسائط نقل لإخلاء المدينة من كافة سكانها العرب، البالغ عددهم ٥٠٠٠ نسمة. ولم يكن ذلك ممكناً إلا بناء على أوامر من ستوكويل، ويجب رؤيته في إطار صفقته مع حوشي.

وعلى ما يبدو، كانت حلقة ضيقة من قادة الهاغانا والضباط البريطانيين على علم بالرهان على الويسكي، وكان ذلك مصدر تسلية لهم. ففي كتابه عن حرب ١٩٤٨، *The Edge of the Sword* (الذي يحتوي على خاتمة بقلم الميجور جنرال يغال يادين، رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي)، يذكر المقدم نتانيل لورخ أن "ستوكويل تراهن مع أحد معارفه [كذا] على أن [احتلال حيفا] لا يمكن تحقيقه في أقل من أسبوع. وخسر الرهان - زجاجة ويسكي."<sup>٧</sup> ولم تكن صفقات حوشي مقتصرة على ستوكويل فحسب، بل إنه عقد أيضاً صفقة مع الكولونيل كونكويس، رئيس دائرة التحقيقات الجنائية البريطانية (CID) في حيفا (المرادفة للـ FBI في الولايات المتحدة). وكانت تلك "اتفاقية جنتلمان" يخطر حوشي بموجبها كونكويس بأي محاولة صهيونية لتخريب السفن البريطانية في ميناء حيفا. "وفي المقابل يضمن [كذا] كونكويس لحوشي السماح له بالاحتفاظ بالسيطرة على حيفا."<sup>٨</sup> ومن أجل الاطلاع على سرد بني موريس المزاوغ فيما يتصل بالمفاوضات مع حوشي انظر كتابه: Benny Morris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited, 1947-1949*

<sup>٨</sup> (Cambridge University Press, 1987), p. 180 والصفحات التي تلي.

إن تواطؤ ستوكويل في أثناء القتال (٢١ - ٢٢ نيسان / أبريل) وخلال المفاوضات اللاحقة بين العرب واليهود التي ترأسها، فضلاً عن دوره في إجلاء سكان حيفا العرب على غرار إخلاء طبرية من السكان العرب - يظهران بوضوح شديد في المذكرات الأربع التي أرسلتها لجنة حيفا القومية إلى ستوكويل ما بين ٢٢ و ٢٥ نيسان / أبريل، وفي مفكرة تلخص فحوى



اللقاءات معه خلال تلك الفترة. وتكشف هذه الوثائق التي نشرها مؤلف هذه المقالة (أي الخالدي) في سنة ١٩٩٨،<sup>٩</sup> الغطاء عن الصفقات بين الجانبين [البريطاني واليهودي]، وعن موقف ستوكويل خلال الأيام الحاسمة التي أعقبت هجوم الهاغانا. كما أنها تُظهر استمرار الثقة الباعثة على الشفقة لدى اللجنة القومية بأن بريطانيا يمكن أن تكون منصفة أو غير متحيّزة.

ومن المثير للاهتمام رؤية ما قام به بني موريس من جهد في سرده الأحداث من أجل تسويق "حياد" ستوكويل. فهو يهمل ذكر تأخر ستوكويل ١٢ ساعة في الاستجابة للطلب العاجل الذي قدمه فريد السعد، عضو لجنة حيفا القومية في ٢١ نيسان / أبريل<sup>١٠</sup> للاجتماع به، ويلفّق طلباً إلى ستوكويل من اللجنة القومية ذاتها في ٢٢ نيسان / أبريل بأن يعلمها بشروط الاستسلام.<sup>١١</sup> ولا يوجد في سرده أي ذكر لمذكرة بالغة الأهمية موجهة إلى ستوكويل في ذلك اليوم تطالبه بتدخل بريطاني لإيقاف سفك الدماء،<sup>١٢</sup> ولا لتهديد ستوكويل الموجه إلى اللجنة القومية بأن ٣٠٠ - ٤٠٠ عربي سيقتلون إذا لم تقبل بشروط الهاغانا للاستسلام،<sup>١٣</sup> ولا لرفضه إعطاء الوفد العربي للمحادثات مع الجانب اليهودي مهلة ٢٤ ساعة [للتشاور مع مَنْ يعينهم الأمر].<sup>١٤</sup> ويهمل موريس أيضاً ذكر إعلان الهاغانا في ٢٣ نيسان / أبريل السيادة اليهودية الكاملة على حيفا، على الرغم من مسؤولية الانتداب القانونية عن كل فلسطين حتى ١٥ أيار / مايو،<sup>١٥</sup> ومناشدة اللجنة القومية في ٢٥ نيسان / أبريل ستوكويل تسهيل عودة المطرودين من حيفا.<sup>١٦</sup>

وتأتي معلومات إضافية عن تكتيكات الهاغانا الإرهابية في أثناء القتال في حيفا من مصادر الهاغانا. فيخبرنا كتاب عن تاريخ معارك الهاغانا في حيفا في سنة ١٩٤٨، بقلم تسادوق إيشل (يشتمل على مقدمة بقلم البريغادير جنرال موشيه كرم، قائد لواء كرملي الذي احتل المدينة) أنه في سياق التمهيد للهجوم الشامل في ٢١ نيسان / أبريل، أرسلت الهاغانا سيارات مفخخة (ابتكار صهيوني في فلسطين منذ أواخر الثلاثينيات، ابتدعته الإرغون) مُحَمَّلة بمتفجرات زنتها ٧٠٠ كغ.<sup>١٧</sup> وحتى بينما كان الجيش البريطاني لا يزال مسؤولاً عن حفظ القانون والنظام العام في حيفا، فإن الهاغانا كانت تقصف عشوائياً، ومن دون أن تتعرض لأي عقاب، المدينة العربية ببطاريات مدافع هاون من عيار ٢ إنش، كل منها مكوّنة من ١٢ مدفعاً تطلق نيرانها جميعاً في الوقت نفسه.<sup>١٨</sup> وقد استُخدمت على نطاق واسع قذائف هاون فاعلة جداً بصورة خاصة كأسلحة رعب في حرب المدن بسبب عدم دقتها ومسارها المنحني فوق الأسطح، فضلاً عن دوي انفجارها الرهيب. واستغلت الهاغانا طوبوغرافيا حيفا إلى أقصى حد، وخصوصاً الأدراج الطويلة المنحدرة من الأحياء اليهودية في الأعلى إلى المدينة العربية في الأسفل، وتفتّق ذهنها عن ابتكار براميل مؤطرة بإطارات سيارات مطاطية ومحشوة بخرق مبللة بالكبروسين (الكان) وموصولة بجهاز إشعال. وكانت هذه "الآلات الجهنمية" الملتبّية، كما دعاها إيشل، تُدحرج في اتجاه الأحياء العربية في الأسفل، مترافقة مع صليات قذائف الهاون.<sup>١٩</sup>



إن غاية وهدف الهجوم النهائي على حيفا في ٢١ نيسان / أبريل متضمنان بشكل ساخر في الاسمين العملانيين اللذين أُطلقا على الهجوم: عملية مِسْبَرَايم، وعملية حَمَيْتُس. فكلمة مِسْبَرَايم، الاسم الذي أُطلق في الأصل على العملية، يعني "المقص"، وهذا تلميح واضح إلى نية "تقطيع" أوصال المدينة العربية إلى ثلاثة أقسام، وفصل كل قسم كلياً عن القسمين الآخرين (وهذا ما حدث فعلاً).<sup>٢٠</sup> لكن ما هو غائب [في الخطة] هو التعاون البريطاني الكامل الذي لم يكن في وسع الهاغانا أن تتوقعه عندما جرى التخطيط لعملية مِسْبَرَايم، ذلك بأن عملية كهذه لم يكن تنفيذها ممكناً من دون صدام شامل مع القوات البريطانية التي كانت لا تزال تحتل حيفا، وهو ما كان يجب تفاديه أياً تكن التكلفة. وبالتالي، فإن من الواضح أن الافتراض الأولي لخطة دالتّ كان أن احتلال حيفا يجب أن ينتظر انسحاب القوات البريطانية، الذي كان من المؤكد أنه لن يحدث قبل ١٥ أيار / مايو، يوم الانتداب الأخير، نظراً إلى حاجة بريطانيا القصوى إلى حماية ميناء حيفا (الذي كان جلاء قواتها سيتم عبره). وقد تغيرت هذه الافتراضات جذرياً مع الصفقة التي عُقدت بين ستوكويل وحوشي في ١٨ نيسان / أبريل، والتي سمحت للهاغانا بالبدء باحتلال المدينة فور تمركز قواتها في المواقع التي أخلتها القوات البريطانية. وإذا أخذنا في الاعتبار إعادة انتشار القوات البريطانية والصهيونية المنسقة، والـ "٢٤ إلى ٤٨ ساعة" التي توقعت الهاغانا أن تكون قادرة على احتلال المدينة العربية خلالها، فإن العملية كان من الممكن أن يتم إنجازها في ٢٢ نيسان / أبريل، عشية عيد الفصح عند اليهود. وفي حال نجاح هذا السيناريو، فإن وقع الانتصار على المعنويات اليهودية سيكون هائلاً، ويفوق كثيراً احتلال مدينة طبرية المتواضعة.

وهكذا، فإنه فقط بعد صفقة حوشي - ستوكويل أصبح ممكناً توقيت العملية بحيث يصادف مع موعد حلول عيد الفصح المعروف مسبقاً، وكذلك إعادة تسميتها بما يتلاءم مع طقوسه فأصبح اسمها "عملية حَمَيْتُس"، ومعنى حَمَيْتُس هو "خميرة" [كناية عن الطعام المختمر المحظور أكله لدى اليهود في عيد الفصح]. والإشارة هنا هي إلى نهى الرب الإسرائيليين عن أكل الخبز المختمر، والالتزام بأكل الخبز الخالي من الخميرة في أثناء هروبهم من مصر، وهو حدث عظيم الأهمية يُحتفل به سنوياً خلال عيد الفصح. "وتأكلون الخبز الفطير سبعة أيام. في اليوم الأول تُخرجون الخمير من منازلكم، فكل من أكل خميراً من اليوم الأول إلى السابع أقطعه من بني إسرائيل."<sup>٢١</sup> ووفقاً للعرف اليهودي، يجري في الليلة السابقة للاحتفال تفتيش البيت بدقة شديدة بحثاً عن أي حَمَيْتُس، وكل ما يُعثر عليه يُجمع ويُحرق قبل ظهر اليوم التالي. وقد نُقل عن الحاخام الأكبر الأسبق لإسرائيل، مردخاي إلياهو، قوله: "إذا كان هناك نُتْفَةٌ (من خمير) في المطبخ مختفية في الزاوية، فيجب أن تفعل كل شيء لإزالتها. وإذا تطلب الأمر، يجب أن تتناول مطرقة وإزميلاً وتحطم الجدار إلى أن تخرج النتفة."<sup>٢٢</sup>

ويود بني موريس أن يجعلنا نصدق أن مِسْبَرَايم وحَمَيْتُس كانا اسمين لعمليتين منفصلتين، الأولى تهدف إلى "إلحاق الأذى والترويع" وليس الاحتلال،<sup>٢٣</sup> والثانية إلى "القضاء على مقاومة العدو" مع أهداف جغرافية محدودة. وفي سرديته لاحتلال المدينة، يروي موريس



أن إعلان ستوكويل "المفاجيء"، لكل من الهاغانا والعرب في صبيحة ٢١ نيسان / أبريل، أنه ينوي إعادة نشر قواته في ذلك اليوم بالتحديد، قد "أطلق مشاورات عاجلة" في مقر قيادة لواء كرملي، أفضت إلى أن إعادة الانتشار البريطانية غير المتوقعة تقتضي "توسيع" أهداف عملية مِسْبَرَايم في فترة ما بين "الصباح وأوائل العصر" (يجب الإشارة إلى أن الأهداف الموسعة، بحسب موريس، لم تتضمن الاحتلال).<sup>٢٤</sup> وبحسب رواية موريس، بما أن ٢١ نيسان / أبريل حل بالمصادفة المحضة مع قدوم عيد الفصح، سُميت العملية (كما يبدو ارتجالاً) "مِتْسفا بيئور حَمِيْتْس" (فريضة تطهير البيت من الخمير في عيد الفصح). ويتوقف موريس عند هذا الحد، كما لو أن التسمية الجديدة لا تنطوي على أكثر من رنين توراتي طريف.<sup>٢٥</sup>

عندما كُتبت المقالة أدناه في سنة ١٩٥٩، كانت أسطورة الأوامر العربية الداعية الفلسطينيين إلى أن يتركوا البلد لا تزال في مركز الجدل العربي - الإسرائيلي لما تنطوي عليه من نتائج بالنسبة إلى المسؤولية الأخلاقية، ولصلتها الواضحة بحق اللاجئين في العودة المكزّس في قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة التي ما زالت الولايات المتحدة (مع بقية العالم) تؤيدها. وقد دُفنت هذه الأسطورة نهائياً في سنة ١٩٦١ على صفحات مجلة "سبكتيتور" (The Spectator) الأسبوعية عقب تبادل الرسائل على صفحات المجلة بين مؤلف هذه المقدمة والصحافي الإيرلندي إرسكين تشايلدرز، من جهة، وجون كمحي، المروّج الرئيسي الأنجلو - صهيوني للأسطورة آنذاك، من الجهة الأخرى. وقد استغرق تبادل الرسائل أكثر من عشرة أسابيع. وعندما وُوجه كمحي (ومن سارع إلى نجده) بتحدي أن يقدم دليلاً على ادعائه أن أوامر بالمغادرة قد صدرت أسقط في يده.<sup>٢٦</sup> أما موريس، فيُسجّل له أنه في كتابه عن "ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، ١٩٤٧ - ١٩٤٩" (*The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949*) الصادر في سنة ١٩٨٧، اعترف بعدم وجود أوامر كهذه. لكنه بعد ارتحاله مؤخراً إلى معسكر اليممين، بدأ يخوض معركة مستميتة محاولاً أن يبرهن أن الأوامر العربية بالإجلاء لم تصدر مسبقاً، وإنما حدثت بشكلٍ ما بعد انتهاء القتال في حيفا، وبعد أن بدأ الخروج.<sup>٢٧</sup>

## سقوط حيفا

[فيما يلي المقالة كما نشرت في الـ *Middle East Forum* في كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٩. الحواشي كلها مضافة، بما في ذلك معطيات النشر للمراجع المذكورة في النص بين هلالين. العناوين الرئيسية والفرعية جرى تغييرها لمزيد من الوضوح].

بدأ الهجوم الصهيوني الشامل على حيفا في وقت مبكر من صباح الأربعاء ٢١ نيسان / أبريل ١٩٤٨، وانتهى في اليوم التالي مع سقوط المدينة في قبضة الصهيونية. وخلال أسبوع واحد، كان ٥٠,٠٠٠ من السكان العرب قد طُردوا. ولم يكن الهجوم ظاهرة منفصلة، ولا ردة فعل على حدث عربي محلي، وإنما مرحلة مهمة في الهجوم الصهيوني الشامل الذي بدأ في ١ نيسان / أبريل، والذي كان الهدف من ورائه تمهيد الطريق لإعلان قيام دولة إسرائيل.



حتى ١ نيسان / أبريل، اكتفى الصهيوينيون بالقنص، وبالقصف بمدافع الهاون، وبزرع القنابل الموقوتة والسيارات المفخخة في المناطق العربية في المدن، وبهجمات خاطفة في الأرياف حيث كانت القوات المعتدية تقوم بنسف عدد من البيوت دفعة واحدة على رؤوس سكانها، ثم تنسحب. ولم يشرع الصهيوينيون في احتلال المناطق العربية والبقاء فيها إلا بعد أن بدأ هجوم نيسان / أبريل الشامل، الذي كانت الاعتبارات السياسية هي الدافع الأساسي له.

### الإطار المكاني والزمني

في أوائل سنة ١٩٤٨، بدا الوقت للصهيوينيين كأنه أخذ في النفاذ بسرعة. فالانتداب كان سينتهي في ١٥ أيار / مايو، مخلفاً وراءه "فراغاً قانونياً" في فلسطين كان من الممكن أن يشغله الاقتراح بفرض وصاية الأمم المتحدة على البلد.<sup>٢٨</sup> وكان الاتحاد السوفياتي فقط، بين جميع القوى العظمى، ما زال مستمراً في تأييد توصية الأمم المتحدة في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين إلى دولتين. وكانت الولايات المتحدة آنذاك قد ألقت بثقلها وراء اقتراح الوصاية. وبدا أن هذا ما كان العرب يريدونه، وما كانت حتى بريطانيا، على استحياء، ترغب فيه.

كان ذلك بالنسبة إلى الصهيوينيين نذير شؤم، وكان لا بد من تحويل "الحق" الأخلاقي في إقامة دولة يهودية، والذي منحه قرار التقسيم للصهيوينيين، إلى حقائق كي لا يفقد أهميته كلها. وفي أواسط آذار / مارس، طلب وايزمن بإلحاح مقابلة الرئيس ترومان، ووافق هذا على الالتقاء به مع أنه لم يكن راغباً في ذلك. ولا نعرف ماذا دار بين الرجلين عندما التقيا، لكن ربما لا يكون إغراقاً في التوهم أن نقول إن صفقة ما أبرمت بينهما يفرض بموجبها وايزمن حقائق في فلسطين بينما يعود الرئيس ترومان (الذي لم يكن مرتاحاً لاقتراح الوصاية) إلى قرار التقسيم بمجرد أن يتم إيجاد الحقائق على الأرض.<sup>٢٩</sup> وأياً يكن الذي جرى في لقاء ترومان - وايزمان، فمما لا شك فيه أن الصهيوينيين كانوا، مع اقتراب نهاية الانتداب في ١٥ أيار / مايو، بحاجة إلى إيجاد وضع عسكري في فلسطين يوقف التآكل في موقف الأمم المتحدة، ويضع العالم أمام أمر واقع (fait accompli)، مرة وإلى الأبد. كان هذا هو الإطار السياسي العام للهجوم الصهيوني الجديد في نيسان / أبريل. وبمزيد من التحديد، كان هدف الهجوم تعزيز وتوسيع المناطق الواقعة تحت الاحتلال الصهيوني بتطهيرها من العرب، وإحكام وصلها [أي المناطق الصهيونية] بعضها ببعض. ومن أجل ذلك شُنّت في ١ نيسان / أبريل عملية نَحْشُون لشقّ ممر عريض من تل أبيب على الساحل إلى القدس في الداخل. وجرى في سياق الهجوم احتلال وتدمير عدد كبير من القرى العربية وصولاً إلى معركة القسطل في ١١ نيسان / أبريل<sup>٣٠</sup> (مجزرة دير ياسين التي ارتكبتها أفراد عصابة الإرعون<sup>٣١</sup> في ٩ نيسان / أبريل كانت جزءاً من عملية نَحْشُون). وبمجرد أن انتهت هذه العملية في ١٣ نيسان / أبريل، والتي نجم عنها طرد ١٠,٠٠٠ إلى ١٥,٠٠٠ قروي عربي، شُنّت عملية يَفْتاح<sup>٣٢</sup> لتطهير الجليل الشرقي من العرب، وإيجاد اتصال بين طبرية وصفد. وقد تُوّجت عملية يَفْتاح باحتلال طبرية في ١٨ نيسان / أبريل، وطرد سكانها العرب البالغ عددهم ٤٥٠٠ نسمة تقريباً، فضلاً عن اللاجئين الذين تدفقوا إلى المدينة من القرى المجاورة مع تقدم عملية يَفْتاح، والذين رفعوا عدد



القاطنين فيها إلى ثلاثة أضعاف.

وكان الهجوم على حيفا العملية الثالثة الرئيسية في الهجوم الصهيوني المتدرج، وكان مكماً لعملية يفتح من حيث إنه كان يمهّد الطريق لاحتلال الجليل الغربي. وفضلاً عن ذلك، كانت حيفا النقطة التي يلتقي عندها الخطان الشرقي والجنوبي للمستعمرات اليهودية؛ الخط الممتد [من حيفا] عبر مرج ابن عامر إلى طبرية والمطلة فالحدود اللبنانية، والخط الممتد جنوباً عبر السهل الساحلي [الشارون] إلى يافا ومن هناك إلى القدس. وقد ضمنت عمليتا نحشون ويفتاح الأطراف، لكن نجاح هاتين العمليتين كان سيذهب أدراج الرياح ما لم يتم ضمان المدينة المحورية، حيفا.

ولم تكن حيفا مرغوباً فيها بسبب أهميتها النسبية فحسب، بل أيضاً لأنها كانت كسباً ثميناً بحد ذاتها، إذ كانت أهم مرفأً عربي في شرق البحر الأبيض المتوسط بعد الإسكندرية، وكانت نقطة مصب أنبوب النفط الآتي من العراق (وبالتالي ربما ورقة مساومة مهمة مع العرب)، وكانت مركزاً رئيسياً لسكة حديد وطرق مواصلات، كما كانت مجاورة لـ "الحزام الصناعي" حول خليج عكا. أما بالنسبة إلى العرب، فقد كانت حيفا جزءاً عضوياً من وطنهم، وكانوا حريصين على ألا تقع في قبضة الصهاينة، لكن أقصى ما كانوا يستطيعون فعله هو، بكل بساطة، الصمود. فموقعهم في سفوح جبل الكرمل، تحت الأحياء اليهودية المشرفة عليهم من الأعلى، كان محفوفاً بالخطر. ومع أن قرى عربية مثل بلد الشيخ في الشرق والطيرة في الجنوب كانت قريبة من حيفا، إلا أن الطرق الاستراتيجية الموصلة إليها كانت تحت سيطرة المستعمرات الصهيونية كلياً، بحيث إن أي نجدات كان يمكن أن تأتي إليها من بعيد كانت بمثابة مغامرة انتحارية.

وما إن اندلع قتال شوارع في إثر قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة في تشرين الثاني / نوفمبر، حتى بادرت سكان المدينة المسلمون والمسيحيون إلى تشكيل لجنة قومية عربية، برئاسة رشيد الحاج إبراهيم الذي كان محترماً ولطيفاً في الثانية والستين من العمر، والذي وجد نفسه عاجزاً عن استيعاب الأوضاع المتلاحقة المحيرة التي كانت يتعين عليه مواجهتها.<sup>٣٣</sup> وعلى وجه العموم، كانت اللجنة القومية العربية مسؤولة سياسياً أمام الهيئة العربية العليا لفلسطين،<sup>٣٤</sup> بينما كانت عسكرياً معتمدة في حاجاتها على اللجنة العسكرية المختصة بفلسطين التابعة للجامعة العربية. وفي ٢٨ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧ عيّنت اللجنة القومية العربية ملازماً شاباً نشيطاً هو محمد الحنيطي، الذي استقال من الجيش العربي الأردني كي يتطوع للخدمة قائداً لحامية حيفا. وقد عمل الحنيطي تحت سلطة اللجنة القومية العربية، وأوكل إليه كل ما يتعلق بالشؤون الأمنية. وكان عدد أفراد الحامية في حيفا، عندما تسلم الحنيطي مسؤولياته، ٧٥ مناضلاً مسلحين بأسلحة خفيفة تراوحت ما بين بنادق وهرافات خشبية وعصي خيزران. وارتفع عدد أفراد الحامية عندما استشهد الحنيطي في ١٧ آذار / مارس، في أثناء قيامه بالواجب، لدى عودته من لبنان على رأس قافلة محملة بالذخيرة والعتاد، إلى ٣٥٠ مناضلاً. وكان كثيرون منهم أعضاء في نواد رياضية في حيفا، وبعضهم كان قد خدم في الجيش البريطاني في الجبهة المصرية خلال الحرب العالمية الثانية، وكان نصفهم تقريباً يقومون بواجبهم بدوام جزئي، ومعظمهم من سكان حيفا نفسها. وقد قُسمت المدينة، تحت قيادة الحنيطي، إلى عشر مناطق أمنية، في كل منها مفرزة دفاع



محلية بقيادة شخص مسؤول مباشرة تجاه القيادة المركزية. وكان النقص في السلاح يحد من قدرتهم دائماً، وكانت المشكلة الأكثر مدعاة للإحباط هي الحصول على ذخيرة ملائمة للأنواع المتعددة من البنادق، والتي اشتملت على عدد غير قليل من القطع المتحفية. وكان يساعد الحنيطي باقتدار يونس نفاع، وهو مفتش صحة في حيفا يهوى التنظيم العسكري. وعندما استشهد الحنيطي، تولى نفاع مؤقتاً قيادة الحامية ريثما يتم تعيين خلف للحنيطي. علاوة على الأمن، أشرفت اللجنة القومية العربية على العناية بالشؤون المعيشية للمجتمع الحيفاوي العربي. وطُبّق في وقت مبكر نظام تقنين، وجرت مراقبة الأسعار لمنع الاستغلال، وحوكم المخالفون أمام محاكم خاصة أنزلت عقوبات صارمة بحق العناصر الخارجة على القانون، والتي استغلت الفوضى العامة خلال جولات القتال للقيام بنهب المحال التجارية والمنازل. وقامت اللجنة القومية العربية أيضاً بجمع التبرعات بانتظام وأشرفت على صرفها. ومع اتساع القتال واستعاره انهمكت اللجنة أكثر فأكثر في مشاكل من قبيل هوية القتلى، وتقديم العناية الطبية للجرحى والمعوقين، وتوفير الطعام والمأوى للفقراء واليتامى. وكانت الاتصالات بين اللجنة القومية العربية والهيئة العربية العليا في القاهرة تتم بواسطة مبعوثين ومحادثات هاتفية بين رشيد الحاج إبراهيم والحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا، وكان الاثنان خلالها يستعيذان معرفتهما باللغة العثمانية في محاولة بطولية لخداع قسم التحقيقات الجنائية البريطاني،<sup>٣٥</sup> وشبكة التجسس الصهيونية. وفي ٢٨ آذار / مارس، وصل النقيب أمين عز الدين، وهو درزي لبناني خدم سابقاً في "قوة الحدود"<sup>٣٦</sup> كخلف للحنيطي. ووصلت مع عز الدين تعزيزات بحجم فصيلة تقريباً (٣٠ - ٤٠ رجلاً). ومع أن هذه كانت أصغر من أن تؤثر في ميزان القوى العام، إلا إنها كانت محل ترحيب نظراً إلى الخسارة الفادحة التي تكبدها المدافعون عن المدينة جرّاء الكمين الذي استشهد فيه الحنيطي قبل عشرة أيام. واحتفظ عز الدين بالنفاع نائباً له.

### حيفا وأسطورة "أوامر الإجماع العربية"

لسبب يتعذر تفسيره، اختار الصهيونيون حيفا لتدعيم أسطورتهم بأن السلطات العربية كان لديها خطة منظمة لإجلاء السكان العرب من فلسطين كإجراء تمهيدي لغزو الجيوش العربية النظامية البلد لدى انتهاء الانتداب البريطاني في ١٥ أيار / مايو. وقد فند صاحب هذه السطور هذه الأسطورة بالتفصيل في مقالة له نُشرت في الـ *Middle East Forum* في تموز / يوليو ١٩٥٩،<sup>٣٧</sup> ولا داعي لتكرار التفنيد هنا. لكن بما أن الصهيونيين يركزون، كما يبدو، على حيفا لإثبات ادعائهم،<sup>٣٨</sup> فإن من الملائم التساؤل لماذا اختاروا حيفا؟ فهي لم تكن أول مدينة تخسر سكانها العرب، ذلك بأن طبرية كانت قد سقطت قبلها بثلاثة أيام، فأين هي أوامر الإجماع الموجهة إلى سكانها العرب؟ ولم تكن طبرية أول موقع يجري احتلاله، فعملية نحشون التي بدأت قبل سقوطها، أدت إلى احتلال وتدمير عشرات القرى العربية، وطرد ما يتراوح بين ١٠,٠٠٠ إلى ١٥,٠٠٠ قروي، فأين الأوامر العربية بالإجماع في هذه الحالة أيضاً؟ وحيفا أيضاً لم تكن آخر مدينة عربية تخسر سكانها العرب قبل نهاية الانتداب، فعملية يفتاح التي بدأت قبل (واستمرت طويلاً بعد) سقوط حيفا،



"طهرت المنطقة" ما بين طبرية وصفد، واحتلت وأفرغت عشرات القرى العربية من سكانها. وبالعودة إلى حيفا - فإن المؤلف في مقالته المذكورة أعلاه عالج موضوع التعليمات الصادرة عن الجامعة العربية، والهيئة العربية العليا وجيش التحرير العربي، الموجهة إلى سكان فلسطين، والتي طُلب منهم فيها عدم مغادرة فلسطين.<sup>٣٩</sup> وتنطبق هذه التعليمات على حيفا وعلى كافة أرجاء فلسطين، بل إنه يمكن القول إن الهيئة العربية العليا ارتكبت خطأ معارضة أي إجلاء من أي نوع كان، بسبب حماسيتها المفرطة.

من الطبيعي في جميع البلاد إجلاء النساء والأطفال في أوقات الحروب من المناطق التي هي عرضة للخطر، وخصوصاً إذا كانت قوات العدو البرية في الجوار. لكن حتى هذا الإجراء الاحتياطي البسيط لم تكن الهيئة العربية العليا لتشجعه. وهذا واضح من نسخة برقية أرسلها رئيس الهيئة العربية العليا الحاج أمين إلى ممثل الهيئة في بيروت في ٣ آذار / مارس ١٩٤٨،<sup>٤٠</sup> والذي ذيل مسودتها بنفسه شخصياً، إذ جاء فيها ما يلي: "هجرة الأطفال وغيرهم من فلسطين للشام وبيروت ضارة بالمصلحة. راجعوا الجهات المختصة بدمشق وبيروت لمنعها، وبلغونا".<sup>٤١</sup>

لكن دعونا ندقق أكثر في موقف لجنة حيفا القومية. فقد أصدرت هذه اللجنة ١٢ بياناً في الفترة ما بين تأليفها وسقوط المدينة، وكانت هذه البيانات هي كل ما صدر عنها علناً، وتضمنت كافة الأوامر والتحذيرات الموجهة إلى عرب حيفا. وقد تمكن المؤلف من العثور عليها، وفيما يلي محتوياتها:<sup>٤٢</sup>

**البيان رقم ١ (٨ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧)** يعلن تشكيل اللجنة ويطالب جميع العرب بالتعاون معها. "نرجو أن يتذرع كل عربي وعربية بالصبر والثبات وأن لا تستفزه الشائعات وأن يظل في مركزه وعمله عند حدوث أي حادث خشية إلحاق الأذى به ومنعاً للفوضى [...] اتصلوا عند وقوع أي حادث بمكتب اللجنة القومية بواسطة التليفون رقم (٣٥٤٠ و ٢١٦٧) [...] (١) لا يجوز الاعتداء على أي عربي؛ (٢) يجب نسيان كل خصومة وطي كل خلاف؛ (٣) لا تتجمهروا في الطرقات والساحات والمقاهي المكشوفة وغيرها؛ (٤) إن القيام بأي اعتداء فردي ممنوع منعاً باتاً؛ (٥) امنعوا الأطفال من التجمع [...]؛ (٦) إياكم والاستغلال والتلاعب بالأسعار."

**البيان رقم ٢ (١٠ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧)** يُمنع التجمهر في الطرق والساحات والقيام بالأعمال الفردية والاعتداءات (على الصهيونيين)، ويُمنع تجمع الأولاد في الشوارع والأزقة، "ويجب أن يكونوا في مدارسهم أو بيوتهم فقط."

**البيان رقم ٣ (١٢ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧)** يبدأ بعبارة "احذروا الطابور الخامس!" ويتابع أن هناك "نفوساً دنيئة [...] تشيع بينكم الأخبار الكاذبة والإشاعات الملفةكة [بقصد] نشر الفوضى وخلق الذعر" خدمة للعدو. ويضيف أن هذا الطابور الخامس "نجح في جولته الأولى إذ إنه أثر في بعض النفوس فتركوا أموالهم نهياً للخصم ونزحوا عن بيوتهم ليحتلها العدو". وينتهي البيان بحض العرب على مقاومة الفوضى والهزيمة.

**البيان رقم ٤ (١٤ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧)** يعلن تشكيل لجان محلية تابعة للجنة القومية ومسؤولة عن كل ما يتصل بأمن السكان وطمانينتهم وحراستهم، ويضيف أن "لهذه اللجان الحق بمنع السكان من النزوح عن بيوتهم وخاصة على الحدود المشتركة



[العربية - اليهودية] [...] وتحذر الجمهور العربي الكريم من التجمهر [...] وتدعو التجار إلى فتح متاجرهم، والعمال بالرجوع إلى عملهم."

**البيان رقم ٥** (١٦ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧) يحتوي على ٢١ طلباً محدداً معظمها تكرار لما قيل سابقاً، أي تحذيرات ضد التجمع والتجمهر، وتعليمات بشأن كيف يمكن الاتصال باللجنة إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، إلخ. وينصّ الطلب رقم ١١ على ما يلي: "استمروا بأشغالكم وأعمالكم ولا تهملوا وافتحوا متاجركم ودكاكينكم ومحال أعمالكم حسب العادة." وينصّ الطلب رقم ١٣ على: "اثبتوا في منازلكم ولا تخلوها للغير ولا تدعنوا لتهديد أو وعيد."

**البيان رقم ٦** (٢٧ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧) يشير إلى ضحايا اعتداءات حديثة، ويدعو السكان إلى عدم الاستسلام لإغراءات القيام بردّ انتقامي. ويطلب منهم التعاون الوثيق مع اللجان المحلية، ويحذر من الإقدام على أي عمل فردي لأن ذلك يشجع اللصوص والمعتدين على أموال الناس، ويحضّ "أن ينصرف كل واحد إلى عمله وأن يفتح كل تاجر متجره وأن يزاوّل العمال أعمالهم حسب العادة."

**البيان رقم ٧** (٢٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧)، [الصادر] بعد أن دحرج الصهونيون برميلاً مملوءاً بالمتفجرات<sup>٤٣</sup> من هدار هكرمل)، يترحم على ضحايا برميل المتفجرات ويطلب التوقف عن إطلاق النار (الذي بدأ بعد الانفجار) حرصاً على "المصلحة الوطنية"، ويحضّ الناس على مزاولة أعمالهم كالمعتاد.

**البيان رقم ٨** (٨ كانون الثاني / يناير ١٩٤٨) يتعلق بالتقنين وتلاعب بعض التجار الجشعين بالأسعار.

**البيان رقم ٩** (٨ كانون الثاني / يناير ١٩٤٨)<sup>٤٤</sup> موجه إلى "العمال العرب في شركات الزيوت [النفط] ومعسكرات الجيش (البريطاني) وورش سكك الحديد وجميع العمال العرب في حيفا وقضاءها، وإلى أفراد البوليس وغيرهم من الموظفين العرب [موظفي الحكومة العرب]". وهو ينصّ على ما يلي: "أخذت اللجنة على عاتقها الاهتمام بقضاياكم والأخذ بناصركم ومعاونتكم في كل ما يضمن سلامتكم ويؤمن مصالحكم حاضراً ومستقبلاً. لذلك لا ترى اللجنة أي ضرورة لانفصال أحدكم عن عمله أو التأخير عن تأدية واجبه، كما تطلب إلى أفراد البوليس البقاء في أعمالهم وتحذّرهم من الهرب بأسلحتهم وعتادهم، لما ينتج عن ذلك من أضرار يجب تجنبها. [...] ابقوا في أماكن عملكم، واعتقدوا أن كل من ترك عمله يسيء إلى نفسه ويسيء إلى وطنه لأنه بالإضافة إلى خسارة عمله ومورد رزقه يفسح المجال لعامل أجنبي ليحلّ محله. وترى اللجنة أن موارد بلادنا يجب أن تبقى بأيدينا، ولا يتسنى لنا ذلك إلا إذا استمر العمال في شركات الزيوت [النفط] ومعسكرات الجيش في أعمالهم والموظفون وأفراد البوليس. وليعلم العمال وأفراد البوليس والموظفون أن واجبهم الوطني في الوقت الحاضر البقاء في أعمالهم. وثقوا أن اللجنة ساهرة على مصالحكم، مستعدة للعمل مهما كلفها الأمر لضمان مستقبلكم وحمايتكم."

**البيان ١٠** (١ آذار / مارس ١٩٤٨) يحذر العناصر العربية التي تقوم بأعمال السلب والنهب والاعتداء واللصوصية، ويعلن تأليف محاكم شعبية عسكرية ومدنية تتولى محاكمة السارقين والعابثين.



**البيان رقم ١١ (١٨ آذار / مارس ١٩٤٨)** يعلن استشهاد الملازم محمد الحنيطي، قائد حامية حيفا، وثلاثة عشر مناضلاً من رفاقه، في اليوم السابق، ويبيّن زمان ومكان إجراءات الدفن.

**البلاغ رقم ١٢ (٢٠ آذار / مارس ١٩٤٨)** يعلن بابتهاج تغيير الموقف الأميركي تجاه قرار التقسيم: "وإذا بالأميركان وشركائهم من الدول المؤيدة للتقسيم - ما عدا روسيا الشيوعية - ترجع القهقري. لكن اللجنة تحذر من أن كل شيء لم ينته بعد، "فعلينا أن نواصل عملنا وأن نحذر المفاجآت والغدر، وأن نثبت [في] مراكزنا." وينتهي هذا البيان الذي هو آخر بيان رسمي صدر في حيفا قبل سقوطها، بما يلي: "ترى اللجنة القومية لزاماً عليها أن تلتفت أنظاركم إلى ما يلي: (١) إننا نعتبر ما تم حتى الآن نصراً تمهيدياً [...]؛ (٢) أن نتجنب أي صدام مع رجال الأمن والجيش [أي البريطاني] في المرحلة القادمة، وأن تستمر سياستنا في عدم الاعتداء على دوائر الحكومة ومنشأتها كما كانت في السابق؛ (٣) أن نتجنب الأعمال الفردية؛ (٤) أن يحتفظ كل منا بمركزه وأن ينفذ ما يصدر إليه من أوامر وتعليمات. عاشت فلسطين حرة عربية موحدة مستقلة، وعاشت ذكرى الشهداء."

هذه البيانات تظهر بما لا يدع مجالاً للشك موقف اللجنة القومية العربية في حيفا من مسألة الإجماع. ففي رسالته الثالثة إلى الـ *Jewish Observer* والـ *Middle East Review* (١١ أيلول / سبتمبر ١٩٥٩)، يذكر السيد الياس كوسا، عضو اللجنة القومية العربية في حيفا سابقاً، أنه "في ١٢ نيسان / أبريل، أو قبل أو بعد ذلك بقليل، حث المفتي (الحاج أمين)، في أثناء وجودي في القاهرة، وكنت حاضراً معه، عدداً من عرب حيفا والقدس على العودة إلى بلديهما." وفي أواسط نيسان / أبريل، أيضاً، رافق الخالدي، مؤلف هذه المقالة، عمه، أمين سر الهيئة العربية العليا الدكتور [حسين فخري] الخالدي القادم من القدس، في أثناء زيارته القاهرة عقب مجزرة دير ياسين، وذلك بصفته سكرتير عمه الخاص. وبهذه الصفة، كتب المؤلف بخط يده مذكرة مؤرخة بتاريخ ١٧ نيسان / أبريل ١٩٤٨ تعبّر عن آراء الدكتور حسين فخري الخالدي (وآراء الهيئة العربية العليا) بشأن أمن المدن الرئيسية في فلسطين، وموجهة إلى اللجنة. وقد ورد في المذكرة أن الدفاع العربي في فلسطين يجب أن يكون مستنداً في الأساس إلى المدن المختلطة الثلاث: القدس، ويافا، وحيفا، التي كانت عرضة لخطر استيلاء الصهيونيين عليها قريباً جداً. وكان رأي الأمين العام للهيئة العربية العليا أن سقوطها لن ينجم عنه طرد سكانها فحسب، بل انهيار المقاومة العربية في المناطق الريفية المجاورة كافة أيضاً. وأوصى بشدة أن ترسل على الفور إلى كل واحدة من هذه المدن من البلد العربي الأقرب قوة مكونة من ١٥٠٠ فرد مدرب (جنود بلباس مدني)، ومجهزة بالعتاد اللازم. وحذّر قائلاً إن هذا هو الحد الأدنى من القوى الضرورية لحماية هذه المدن وسكانها في مواجهة الهجوم الصهيوني الجاري.

### التواطؤ البريطاني

كان ثمة عامل أساسي آخر في سقوط حيفا هو موقف السلطات البريطانية. فالهجوم الصهيوني بدأ فور انسحاب القوات البريطانية من مواقعها في المناطق الفاصلة بين الأحياء



العربية واليهودية في المدينة. ومع أن العرب واليهود، كلاهما، أُبلغا رسمياً بالانسحاب بفارق ساعة بينهما في صباح ٢١ نيسان / أبريل، إلا أن هناك ما يدل على أن الصهيونيين علموا بخطط الانسحاب قبل فترة طويلة من العرب، وحشدوا قوة ضاربة من جميع أنحاء البلد تمركزت فوق الأحياء العربية، وأبقوها في حالة تأهب كي يتمكنوا من احتلال المواقع البريطانية فور إخلائها. [وفي الوقت الملائم لهم] شنّوا من هذه المواقع سلسلة من الهجمات كان من الواضح أنها قامت على افتراض عدم وجود البريطانيين في مواقع معينة وانسحابهم إلى مواقع أخرى.

ومما لا شك فيه أن البريطانيين كانوا على علم في ذلك الوقت بحجم القوة الضاربة، وبالقصد من وراء حشدها، ومن المؤكد أنه كان في استطاعتهم أن يتنبؤوا بعواقب انسحابهم على السكان العرب في الأسفل. إن عنصر المفاجأة الذي أُتيح للصهيونيين تحقيقه (والذي هو عامل لا غنى عنه لنجاح أي هجوم عسكري)، فضلاً عن المواقع الاستراتيجية التي لا تُقدّر بثمن، والتي سلّمها البريطانيون لهم من دون مقابل، وكذلك الاستخدام الفاعل والمدمر للحرب النفسية، والوحشية التي اتسمت بها الهجمات العسكرية، هي التي أدت إلى سقوط حيفا بيد الصهيونيين. وثمة عوامل أخرى: ضعف العرب عسكرياً؛ غياب تنظيم دفاعي مدني عربي ملائم؛ وضع المواقع العربية غير المواتي تكتيكياً كونها واقعة في المناطق المنخفضة المحاذية للبحر؛ مغادرة أمين عز الدين المدينة. لكن هذه كانت عوامل ثانوية، فالعوامل الحاسمة كانت التواطؤ، أو التناغم، البريطاني - الصهيوني في الخطوات المتخذة، والإرهاب الصهيوني، المادي والنفسي. ما هو الدليل على وجود هذا التواطؤ البريطاني - الصهيوني؟ ربما كان الدليل الأهم هو سلوك السلطات المدنية والعسكرية البريطانية (وخصوصاً القائد البريطاني المسؤول الميجور جنرال هيو ستوكويل) خلال الهجوم الفعلي، كما سنرى أدناه. وهناك أيضاً برهان إضافي هو سلوك البريطانيين في مناسبة أخرى، عندما سلّموا، مثلاً، مجموعة المباني الاستراتيجية في قلب القدس المعروفة، على سبيل الهزل، باسم "بيفنغراد" إلى الهاغانا في المدينة قبل انتهاء الانتداب مباشرة. وقد وصف شاهد عيان، هاري ليفن، هذا الحدث في يومياته (Jerusalem Embattled, p. 151):<sup>٤٥</sup>

خلال ١٠ دقائق بعد الجلاء البريطاني، كانت [مجموعة مباني] بيفنغراد قد أصبحت تحت سيطرة الهاغانا: المبنى الرئيسي؛ مركز البريد؛ البنك الإنجليزي - الفلسطيني (Anglo-Palestine Bank)؛ مقر قيادة البوليس؛ السجن المركزي؛ المسكوبيه (Russian Compound). كلها جميعاً، ومن دون طلقة واحدة. هكذا، وبكل بساطة. وكان الاعتقاد السائد هو أن الاشتباك الرئيسي سيحدث هنا - [قوات] الهاغانا تتقاطر إلى طرف، والعرب إلى الطرف الآخر... لكن، فجأة، أصبح الشارع مهجوراً. هذا ما حدث.

رحل البريطانيون، وبدأ حشد من الصبية يجرون أكياساً من الرمل إلى المنطقة بسرعة جنونية... وفجأة، ظهرت في الداخل [قوات] الهاغانا. لقد كانت هناك طوال الوقت. وأخبرني ج. أن القائد المسؤول عن المنطقة كان قد وافق على



أن تقوم دوريات مشتركة بين البريطانيين وأفراد الهاغانا بحراسة المنطقة في **الليلة الفائتة** كإجراء لردع المنشقين [الإرغون وعصابة شتيرن] عن القيام بهجمة في الدقائق الأخيرة<sup>٤٧</sup> (تُرى هل كانت الشائعة عن الهجمة صحيحة أم مدسوسة؟) مع انتهاء فترات الحراسة كان الجنود البريطانيون وأفراد الهاغانا، يأكلون، ويتسامرون، وينامون سوية<sup>٤٨</sup>.

وهناك أيضاً شهادة الميجور ر. د. ويلسون، المؤرخ الرسمي للفرقة السادسة المحمولة جواً في فلسطين (التي كان قائدها الميجور جنرال ستوكويل). فويلسون ينكر أن البريطانيين بلّغوا الصهيونيين قبل العرب، لكنه يوحى بأن البريطانيين كانوا يعرفون ما كان سيحدث. وهو يذكر في كتابه *Cordon and Search* - الذي كتب ستوكويل مقدمته - أنه "في آذار / مارس أصبح واضحاً أن العرب ربما لن يكونوا هم في نهاية الأمر من سيبدأون الهجوم للسيطرة على حيفا" (ص ١٧٦).<sup>٤٩</sup> ويضيف لاحقاً:

استمر الصراع اليهودي - العربي للسيطرة على المدينة (حيفا) في الاحتدام، وبحلول ١٩ نيسان / أبريل صار من الواضح أن معركة مكشوفة على وشك أن تنشب، وأن البريطانيين، بسبب ضعفهم نسبياً من ناحية العدد وتشتت قواتهم، لن يكونوا قادرين على أداء دور حاسم، وأن هجوماً من جانب اليهود أو العرب لن يوفّر حياة الجنود البريطانيين، لأن الأمر الرئيسي سيكون السيطرة على المدينة من خلال هزيمة الخصوم. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، أيأ يكن الطرف الذي سيسشن الهجوم، فإنه سيحتاج إلى عدد من المواقع التكتيكية التي تسيطر عليها القوات البريطانية. سيندلح قتال عنيف وسيكون هناك خسائر في الأرواح (ص ١٩١).

وهناك أيضاً دليل يقدمه مناحم بيغن، قائد الإرغون. ففي كتابه<sup>٤٩</sup> *The Revolt*, p.165، يقول: "أعلن القائد العسكري البريطاني في حيفا أن قواته ستسحب في نهاية نيسان / أبريل، وكانت الهاغانا على علم بالموعد وحشدت قواتها لخوض المعركة الحاسمة. وبناء على طلب قائد الهاغانا في المنطقة الشمالية تحركت وحدات الإرغون، بقيادة أمييل (Amiel)، وأمرت باحتلال بناية محصنة جيداً للعدو ومسيطرة على شارع هالوثس، الشريان الرئيسي لهدار هكرمل."

لكن جون كمحي، رئيس تحرير *Jewish Observer*، المجلة الرسمية الناطقة بلسان الاتحاد الصهيوني في بريطانيا، كان هو الذي كشف المستور في مراجعته لرواية إدوارد عطية "Lebanon Paradise" في *Jewish Observer* والصادرة في ١٣ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥٣. يصف عطية سقوط حيفا في روايته. وهاكم ما يقوله كمحي: "إنهم (الأشخاص العرب في



رواية عطية) يؤكدون أن البريطانيين أخبروا اليهود، وليس العرب، أنهم يعتزمون الجلاء عن القسم الأكبر من حيفا. وقد اعتقدتُ دائماً أن هذه التهمة كانت تبريراً عربياً أو دعاية عربية، وأعلم الآن أن هذه الرواية صحيحة: إنهم لم يُخبروا.<sup>٥٠</sup>

### الأربعاء، ٢١ نيسان / أبريل

بات من الضروري الآن إلقاء نظرة أكثر تدقيقاً في ما جرى في اليومين الحاسمين، ٢١ و٢٢ نيسان / أبريل. ٢١ كان يوم الأربعاء، وبدا للعرب في البداية كأنه مثل أي يوم آخر. كان هناك إطلاق نار في الصباح الباكر في أرجاء متعددة من المدينة، لكن ذلك لم يكن أمراً غير اعتيادي. وبالتأكيد لم يكن ليخطر في بال عرب حيفا أن هذا سيكون صباح يومهم الأخير في بيوتهم.

### مزايا معرفة الصهيونيين [بالانسحاب البريطاني] مسبقاً

في الساعة ١١,٣٠ استدعى الميجور جنرال ستوكويل، وكان قائد الفرقة السادسة المحمولة جواً، وصفته الرسمية آنذاك قائد القطاع الشمالي، النقيب عز الدين، قائد حامية حيفا العربية، إلى مقر قيادته في شارع ستيفلا مارس،<sup>٥١</sup> وسلمه بياناً باللغة الإنجليزية جاء فيه:

في الأسبوعين الأخيرين توالى الاصطدامات العربية اليهودية بكثرة هائلة فيجب وقفها إذا أُريد أن يُستتب الأمن والنظام في حيفا.

وإني لا أرغب في زج الجنود أو البوليس في هذه الاصطدامات بأي حال، وما أقصد إلا تأمين الطرق والأماكن اللازمة لي لضمان الجلاء البريطاني عن فلسطين خلال الأشهر الثلاثة المقبلة عن طريق مرفأ حيفا. وإني على استعداد لتقديم المساعدة لأي من الفريقين إذا طلب مني أن أفعل ذلك، وقصدي إقرار السلام والأمن في هذه المنطقة.

إن الطرق التي أرغب في استعمالها لجنودي هي [هنا ذكر لأسماء الطرق]، وأما الأماكن فهي [هنا أسماء الأماكن].

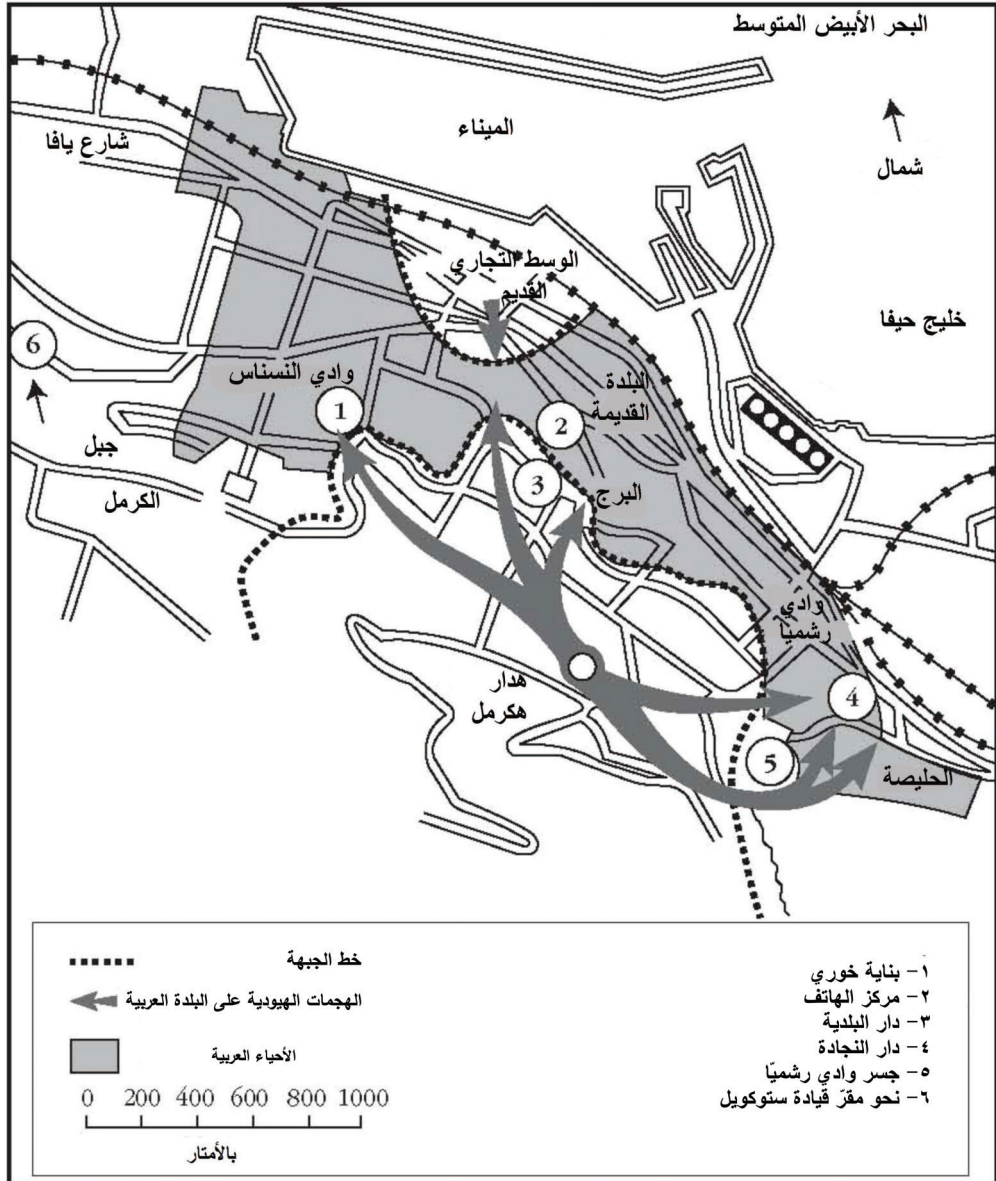
وقد بلغت اليوم السلطات العسكرية عما ذكرت، وسأعمل ما يحول دون تعرّض أحد الفريقين المتخاصمين لهم. ولذا أطلب من الفريقين عدم عرقلة أعمالهم وسأخذ ما يلزم من الإجراءات لتأمين ذلك ورغبتي في أن تتم عملية جلاء البريطانيين عن حيفا بسهولة وبسرعة، وأن تستمر علاقاتنا الطيبة في المستقبل وسنحمل معنا احترام وصدقة كلا الطرفين (الفريقين).

٢١ نيسان / أبريل ١٩٤٨.

ويمكن إدراك أهمية هذا البيان على نحو أفضل بالإشارة إلى خريطة حيفا.



## حيفا، ٢١ - ٢٢ نيسان / أبريل ١٩٤٨ - مسرح العمليات





بصورة عامة، تقع مدينة حيفا على السفوح الشمالية لسلسلة جبال الكرمل في مواجهة خليج عكا. ويقع الجزء الأشد اكتظاظاً بالسكان إلى الشرق من شارع الكرمل بين الميناء وهدار هكزمل. وهنا يوجد حيّان يهوديان: هدار هكزمل مع المناطق المرتفعة المتصلة بشارع هيرتسل، والمركز التجاري في الأسفل بين كينغزوي وشارع النبي. أمّا الأحياء العربية (من الشرق إلى الغرب) فكانت: الحليصة؛ وادي رشميّا؛ البرج؛ المدينة القديمة؛ وادي النّسناس؛ وجميعها واقعة تحت هدار هكزمل بين هذا الحي اليهودي والميناء، وكان وادي النّسناس وأجزاء من البلدة القديمة واقعين بين الحيين اليهوديين.

وكان البريطانيون قبل أن يعلن ستوكويل الانسحاب يسيطرون على المدينة بأسرها، وقد حققوا ذلك بتمركزهم في نقاط تكتيكية منتشرة تقريباً على طول خط التماس الفاصل بين المناطق اليهودية والعربية. وعلاوة على هذه النقاط الثابتة، سَيّر البريطانيون دوريات مصفحة لحراسة الطرق الرئيسية.

وطوال الشهر السابق للانسحاب البريطاني، لم تتكبد القوات البريطانية أي إصابة. وبحسب وصف ويلسون (ص ١٧٠) للفترة السابقة للانسحاب، فإنه "على الرغم من كل القتال الذي استمر في حيفا، فإن الوضع لم يفلت قط من السيطرة، ولم يفلت زمام المبادرة [من يد البريطانيين] مطلقاً." وفي وقت حدوث الانسحاب، كان لدى البريطانيين في حيفا لواء الحرس الأول، ووحدة من الدبابات ومن المدافع ذاتية الدفع من كتيبة تشستنت (Chestnut) التابعة لسلاح الفرسان الملكي الأول (1st Regiment; Royal Horse Artillery)، وسرية من الخيّالة (المجوقلة) الثالثة (3rd Huseraars)، وجنود البحرية الملكية في منطقة الميناء.

وفيما يتعلق بالموقف العربي تجاه القوات البريطانية، يلاحظ ويلسون (ص ١٧٧) أنه "نادراً ما كان هناك عدم تعاون من جانب القادة العرب المسؤولين في إثر هجوم [عربي] متعمد على القوات. وكانوا يكرهون هذه الهجمات بمقدار كره البريطانيين لها، ويبذلون جهداً صادقاً ومفيداً لمنعها من الحدوث، وجلب مرتكبيها إلى العدالة، وإعادة الأسلحة والأموال المسروقة."

لقد كان تأثير الانسحاب البريطاني في الوضع العربي كارثياً. ومعرفة الصهيونيين بموعد الانسحاب البريطاني مسبقاً مكنت قواتهم من احتلال النقاط المشرفة والرئيسية على امتداد خط التماس الذي كانت القوات البريطانية تسيطر عليه، وذلك من دون أن يكلفها احتلالها أي شيء. ولم يؤد ذلك إلى تعزيز قوي لوضع القوات الصهيونية المتفوق أصلاً على العرب الموجودين في الأسفل فحسب، بل فاجأ العرب أيضاً بواجهة من النيران اضطرتهم، في خضم المعركة، إلى تكييف وضعهم للتعامل معها. وكان في وسع الصهيونيين، بسبب معرفتهم باتجاه الانسحاب البريطاني، أن يقرروا على مهل أين يكون الاقتحام الأول، وأن يخططوا لهجمات لاحقة من المركز التجاري القريب من الميناء، ومن هدار هكزمل، وينسقوا بينها. أمّا عرب حيفا فكانوا مقطوعين كلياً عن العالم الخارجي. فقد أوقفت الحواجز البريطانية على الطرقات المفضية إلى يافا، والناصرية، وعكا، وجنين، التعزيزات العربية، وردّت النجدة القادمة من القرى المجاورة على أعقابها. ولم يكن في قدرة العرب، من الناحية التكتيكية، فعل أي شيء تقريباً: لم يكن في استطاعتهم أن يشنوا هجوماً مضاداً على المركز التجاري بالقيام بحركة التفافية من الجنوب أو الشمال، ولم يكن في استطاعتهم أيضاً الالتفاف حول هدار



هكرمل من الغرب أو الشرق. لقد فُرضت المواجهة على العرب من قبل البريطانيين في الوقت والظروف اللذين اختارهما الصهيونيون - وبمعرفة من البريطانيين.

وهكذا، تعيّن على سكان مدنيين، ربما هم أقل رغبة وتمرساً بالحرب من أي تجمع سكاني حضري على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، أن يخوضوا صراع حياة أو موت في مواجهة عدو متمرس ومتمركز في مواقع حصينة مشرفة عليهم من الأعلى، وبتهيأ للوثوب عليهم، ومن ورائهم البحر على مسافة لا تزيد على ٣٠٠ متر، حيث تراقب قوات الجيش البريطاني الضاربة وجنود البحرية المشهد، ربما بأكثر من مساحة من الفضول المهني. لكن العامل الحاسم، والأهم من ذلك كله، كان عنصر المفاجأة. فالصدمة النفسية التي زعزت العرب زادا وطأة أنهم لم يكونوا يشعرون بأي خطر وشيك فيما يتعلق بحيفا. وكان شعورهم وأملهم مبنيين على تصريحات رسمية بريطانية بأن البريطانيين سيقبضون في حيفا ثلاثة أشهر إضافية بعد انتهاء الانتداب، لأن الجلاء عن فلسطين كان سيتم عبر ميناء حيفا.

وثمة نقطة مثيرة للاهتمام هي الغموض في البيان الذي سلّمه ستوكويل لعز الدين بشأن الانسحاب [من المواقع]، فهل كان قد حدث فعلاً، أم إنه كان سيحدث؟ ففي الحقيقة، بينما كان ستوكويل يسلم عز الدين البيان، ويستمر في مهزلة تسليم بيان مماثل لقائد الهاغانا، كانت القوات البريطانية قد انسحبت بالفعل، والهاغانا قد احتلت مسبقاً النقاط الحصينة التي جرى إخلاؤها.

وهذا ما تؤكده شهادة الياس كوسا (رسالة إلى *Jewish Observer*, 18 December 1953)، وما تؤكده أيضاً شهادة يعقوب سولومون، وهو من أعيان يهود حيفا وقد أدى دوراً بارزاً آنذاك (*Jewish Observer*, 11 September 1959).

في سياق تطرقه إلى الموضوع، يشير ويلسون (ص ١٩٢) إلى أن العرب واليهود جرى إخبارهم بالخطة البريطانية "في صباح إعادة الانتشار (٢١ نيسان / أبريل)"، لكنه يورد ذلك على نحو ملتبس أما المؤرخ الصهيوني هاري ساكر (*The Establishment of the State of Israel*, p. 242).<sup>٢٢</sup> فمع أنه يوافق على أن الانسحاب كان قد حدث فعلاً، إلا أنه يصر على أن ستوكويل بلغ عز الدين بذلك، من دون أن يقدم دليلاً على ادعائه هذا.

عندما قرأ عز الدين البيان الذي سلّمه إياه ستوكويل، استشاط غضباً واحتج بشدة على هذا العمل، ولم "يرحب باسم العرب بإعلان الجنرال"، كما يدّعي كمحي (*Seven Fallen Pillars*, p. 219).<sup>٢٣</sup> وفي الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً تقريباً، مباشرة بعد انتهاء المقابلة مع ستوكويل - وليس (كما يدّعي كثيرون) بعد أن بدأ إطلاق النار - قرر عز الدين الذهاب إلى دمشق كي يخبر رؤسائه في اللجنة العسكرية العربية بما جرى. لقد اتهم عز الدين بالجبن، وقد أخطأ بالتأكيد في التقدير، ولم يدرك الخطورة البالغة لتلك اللحظة، كما أن الأحداث تجاوزت نيّته إقناع رؤسائه في دمشق بخطورة الوضع وبضرورة الحصول على مساعدة والعودة بسرعة إلى حيفا. ومع ذلك، وعلى الرغم من أنه كان لديه خبرة عسكرية أوسع من نائبه المدني النفع، الذي أوكل إليه مسؤولية الحامية، فإن من المشكوك فيه أن وجوده في حيفا كان سيغيّر مجرى الأحداث. ولا يوجد أي دليل في روايات شهود العيان على أن مغادرته (التي لم يكن يعلم بها إلا عدد قليل جداً من الأشخاص) قد أحدثت أي تأثير سلبي في معنويات الناس.<sup>٢٤</sup>



### طوابير متقدمة وحرب نفسية صاعقة

في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، دُعي فريد السعد، وهو مصرفي حيفاوي وعضو اللجنة القومية إلى مأدبة غداء في منزل رفيق بيضون، مساعد حاكم لواء حيفا في إدارة الانتداب. ودعا بيضون أيضاً القائد العسكري البريطاني لمنطقة حيفا [الجنرال ستوكويل]، ومدير البوليس البريطاني، ورئيس بيضون، ومعاون حاكم لواء حيفا البريطاني، وعددًا من وجهاء المدينة.<sup>٥٥</sup> وقد اعتذر ستوكويل ومدير البوليس، لكن معاون حاكم لواء حيفا، السيد فيتزباتريك، حضر. وبحسب السعد (Al-Kulliyah, vol. 25, no. 5, April-May 1949)، فإنه "فور وصول السيد فيتزباتريك انتحى بي جانباً ولمح إلى أن الجيش البريطاني يوشك أن ينسحب من الأحياء العربية في المدينة، وأنني إذا كنت معنياً بسلامة النساء والأطفال العرب فيجب أن أتصل فوراً باليهود، وأحمي الأبرياء من أن تسفك دماؤهم" (لم يكن السعد قد سمع بعد عن لقاء ستوكويل - عز الدين، لكن ما يلتفت الانتباه هو أن فيتزجيرالد قال إن الجيش البريطاني "يوشك" أن ينسحب). وبينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث، سُمع دوي إطلاق نار. ولم يكن هذا الدوي هو المؤلف في مثل هذا الوقت من النهار، وإنما كان، بحسب السعد، دوي مدافع قوية "غير مألوفة سابقاً".

وفي الواقع، كان إطلاق النار مصدره الهجوم على دار النجادة العربية المشرفة على جسر وادي رشميا من ناحية الجنوب، والذي شنه الصهيونيون كخطوة تمهيدية قبيل ساعة الصفر التي حددوا موعداً لها غروب الشمس (Sacher, p. 243). ونجحت القوات الصهيونية في احتلال دار النجادة بعد "قتال مرير من طبقة إلى أخرى" (Ibid.). لكن، ما إن صارت القوة الصهيونية في داخل المبنى، حتى "حوصرت وتعرضت لإطلاق نار متواصل من جانب العرب، وقُتل أو جرح معظم أفرادها" (Ibid.). وجاء الرد الأقوى على الهجوم على دار النجادة من الطرف الشرقي الأقصى لحي الحليصة العربي، والذي كانت أجزاء منه تقع في أرض مشرفة على موقع المبنى. وكان ضجيج هذه المعركة هو ما سمعه السعد والضيوف المدعوون إلى الغداء. الوقت الآن الثالثة عصراً. اتصل فريد السعد بحاكم اللواء البريطاني، الموظف المدني الأعلى رتبة في حيفا، و"سأله إن كان لديه علم بشأن جلاء الجيش عن القسم العربي من المدينة". وبحسب السعد، فإن حاكم اللواء "تظاهر بأنه لا يعرف شيئاً عن ذلك." وعندئذ طلب السعد من الحاكم ترتيب "مقابلة عاجلة" مع ستوكويل.

وفي تلك الأثناء، كان الصهيونيون ينتظرون غروب الشمس. وكان اسم قائد القوة المشتركة بين الهاغانا والإرغون (ربما الملائم جداً)، الكولونيل موشيه كرم. وكانت خطته أن يحرك من هدار هكرمل ثلاثة طوابير إلى داخل الأحياء العربية، وأن يحرك طابوراً من المركز التجاري في الاتجاه المعاكس للالتفاف على المواقع العربية من الخلف. وكان على الطابور الأيمن المنحدر من هدار هكرمل أن يخترق الحليصة، مروراً بالجسر، فوادي رشميا في اتجاه منطقة الميناء، وكان على الطابور الأوسط أن ينحدر عبر شارع البرج، بينما كان على الطابور الأيسر المكون من قوات الإرغون (The Revolt, p. 165) أن يخترق وادي النسناس. وكانت الفكرة الرئيسية أن يلتقي الطابور الأوسط والطابور الأيسر والطابور المهاجم من ناحية المركز التجاري في شارع ستانتون. وبذلك يتم تقطيع وسط المنطقة العربية إلى ثلاثة أقسام كل واحد منها معزول عن



الآخر (Sacher, p. 242). وقبل ثلاث ساعات من غروب الشمس، من الساعة الثالثة عصراً تقريباً فصاعداً، شنّ الصهيونيون ما يصفه كمحي نفسه (Seven Fallen Pillars, p. 219) بأنه "حرب نفسية صاعقة". وبحسب كمحي: "وُزعت مناشير وانتشرت عربات بِيك أب [vans] مزودة بمكبرات صوت دعت السكان العرب إلى انتظار بيان مهم، والابتعاد عن المتطوعين الأجانب، والبقاء داخل بيوتهم". ويصف آرثر كوستلر أيضاً في *Promise and Fulfillment* (في الفصل المعنون "David and Goliath", p. 207)<sup>٥٦</sup> هذا الهجوم النفسي الصاعق، فيقول: "لم تكن الهاغانا تستعمل محطة إذاعتها فحسب، بل عربات بِيك أب أيضاً مزودة بمكبرات صوت كانت تبث أخبارها المندرة بالشر من الأماكن المجاورة للأسواق العربية. وكانت تحتّ السكان العرب على الابتعاد عن البيوت التي يقيم فيها المرتزقة الأجانب الذين تسللوا إلى المدينة، وتحثهم على إرسال نسائهم وأطفالهم بعيداً قبل أن تصل فرق عراقية متوحشة. وتعدّهم بتوجيههم إلى منطقة عربية وتوفير مواكبة لحراستهم وإيصالهم بأمان، ولمحت إلى تعرضهم لعواقب مرعبة إذا ما تم تجاهل تحذيراتهم". وبعد عدة ساعات من هذا التهيب، فضلاً عن ضجيج المعركة الحامية غير المألوفة على دار النجادة، تملكّ عرب حيفا القلق والخوف. ولم يكن فريد السعد قد حصل على موعد لمقابلة مع ستوكويل بعد.

الساعة السادسة والنصف مساءً كانت ساعة الصفر. وقد افتتح الصهيونيون الهجوم بالرشاشات الثقيلة ومدافع الهاون، وجرى قصف الأماكن المنخفضة في المدينة بشكل عشوائي (من هدار هكرمل)، بينما تعاملت الطوابير الأربعة الصهيونية مع العقبات القريبة منها. وعلى حد قول السعد: "كان هذا مختلفاً جداً عما اعتدنا عليه". وبحسب ساكر (ص ٢٤٣)، فإن القصف "سبّب رعباً شديداً وبعض الدمار". واستمرت الحرب النفسية الصاعقة بالتزامن مع القصف محدثة ضجيجاً متنافراً غريب الوقع، ووفقاً لكمحي (ص ٢١٩): "فإن هذا النهج [أي الحرب النفسية الصاعقة] تكرر من المساء حتى منتصف الليل".

في تلك الأثناء لم يكن تقدم الطوابير الأربعة سهلاً كما كان متوقعاً. فتقدّم الطابور الأيمن الذي هاجم الحليصة "كان بطيئاً، بطيئاً جداً" (Sacher, p. 243)، وصار وضع المهاجمين الذين كانوا قد أصبحوا داخل دار النجادة حرجاً جداً. واضطر الطابوران الأوسط والأيسر إلى شق طريقيهما في "كثير من الأحيان بقتال من بيت إلى بيت" (Ibid.). كما واجه الطابور المنطلق من المركز التجاري مقاومة شديدة أيضاً. وفي التاسعة مساءً (بعد ساعتين ونصف الساعة من ساعة الصفر) اتصل حاكم لواء حيفا البريطاني بفريد السعد هاتفياً، وكان لا يزال في منزل بيضون، ليخبره أن ستوكويل يمكن أن يقابله في الساعة التاسعة صباحاً في اليوم التالي (ربما من المشروع التساؤل لماذا أخر ستوكويل المقابلة مع السعد ١٢ ساعة؟). وفي التاسعة والنصف مساءً دعا السعد أعيان حيفا العرب إلى اجتماع في منزله، وكان في هذه الأثناء قد تسلّم من النفاق نص البيان الذي سلّمه ستوكويل لعز الدين في صباح ذلك اليوم.

وكانت جموع من المدنيين المذعورين تهرج البيوت الواقعة في طريق الطابور الصهيوني المتقدم عبر وادي النسناس والأحياء القريبة جداً من هدار هكرمل. وتحت وطأة الرعب الذي تملكهم، شق بعضهم طريقه إلى منطقة الميناء الواقعة تحت سيطرة البريطانيين، حيث كان جنود البحرية البريطانية، بحسب كوسا (رسالة إلى الـ *Jewish Observer* بتاريخ ١٨ كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٣)، "عاكفين على نقلهم" إلى عكا. وفي الحقيقة، وكما يذكر كمحي



(ص ٢١٩)، فقد "أنهارت أعصاب العرب بعد حلول الظلام بفترة وجيزة، وتحول الخوف لدى الهاربين إلى حالة زعر شديد حتى قبل بدء القتال الشامل".  
في هذا الجو، اجتمع الوجهاء العرب في منزل السعد "لمناقشة فحوى بيان الجنرال ستوكويل ولإعداد صيغة جواب" (السعد). واستمرت المداولات حتى وقت متأخر بعد منتصف الليل.

### الخميس، ٢٢ نيسان / أبريل

نحو الساعة الواحدة صباحاً أصبحت مذكرة الرد على البيان جاهزة: (أ) اعتبرت ستوكويل مسؤولاً عن الوضع في حيفا اعتباراً من ٢١ نيسان / أبريل؛ (ب) أكدت لستوكويل استمرار رغبة اللجنة القومية في التعاون مع البريطانيين في حفظ القانون والنظام العام في حيفا؛ (ج) طلبت من ستوكويل، في حال عدم استعداده للتدخل، السماح للتعزيزات العربية (التي جرى إيقافها عند الحواجز) بالدخول إلى المدينة.

### مناشدات لم تلق أي اهتمام

في هذه الأثناء، كان حيّ الحليصة لا يزال صامداً في مواجهة الطابور الأيمن، وكان الطابور المنطلق من المركز التجاري لا يزال يواجه مقاومة، بينما كان الطابور الأوسط وطابور الإرعون الأيسر يتقدمان بسرعة. ووفقاً لبيغن (ص ١٦٥)، شرعت القوات اليهودية "في التقدم عبر حيفا كما السكين في [قالب من] الزبدة، وبدأ العرب بالفرار مذعورين وهم يصرخون 'دير ياسين!'" وفي الثالثة فجراً تلقى السعد اتصالاً هاتفياً من سكرتير اللجنة القومية ليقول له إن اليهود وصلوا إلى قلب المدينة العربية (على الأرجح شارع البرج)، وعلى الفور اتصل السعد بالسلطات المدنية والعسكرية البريطانية "وناشدهم إعادة النظام العام ووضع حد لقتل النساء والأطفال العرب الأبرياء، وخصوصاً أنه"، كما أضاف بسذاجة "من واجبهم أن يفعلوا ذلك". ولم تلق مناشدات السعد "أي اهتمام"، أو بالأحرى، لقيت اهتماماً - لكن بمعنى مختلف تماماً.

كان الوضع بالنسبة إلى العرب حرجاً جداً، لكنه لم يكن ميؤوساً منه. فبناية الخوري، مفتاح المنطقة الواقعة إلى الجنوب من شارع ستانتون، كانت تقاوم بشدة، وكان مركز الهاتف لا يزال بيد العرب، كما أن حيّ الحليصة كان لا يزال يعرقل الطابور الأيمن، وكان تقدم الطابور المنطلق من المركز التجاري لا يزال ضئيلاً. لكن، وفقاً لساكر:

... في ساعات الصباح الباكر عندما صار الوضع واضحاً إلى حد كبير للجنرال ستوكويل، اتصل بالقائد العسكري اليهودي ليسأله ما هي الشروط التي يمكن أن يقبلها لاستسلام المدينة.

كان القتال لا يزال مستمراً، ولم يكن الوضع واضحاً للكولونيل كرمل كما كان بالنسبة إلى الجنرال ستوكويل، لكنه، مع ذلك، بلغه شروطه (p. 243).



ولا يحتاج المرء إلى أن يكون عسكرياً كي يدرك أهمية هذه الخطوة من جانب ستوكويل. فلم يكن أي عربي قد تحدث عن استسلام، ولم يكن أي عربي قد طلب من ستوكويل أن يستفسر عن الشروط الصهيونية، ولم يتكلف ستوكويل في اليوم السابق حتى عناء الالتقاء بالعرب ليعرف منهم ما هو موقفهم، بل إنه أخر مقابلتهم، وهذا لا يمكن غفرانه، حتى التاسعة صباحاً من ذلك اليوم (الخميس). وكانت رسالته إلى كرمل بمثابة تأكيد (إن كان ما زال ثمة حاجة إلى مثل هذا التأكيد) أنه مستعد للذهاب معه إلى آخر مدى. وكان مجيء هذه الرسالة في ذروة المعركة النفسية (حين كثير من المعارك تُخسر أو تُربح) بمثابة إخبارية لا تُقدّر بثمن، ولنقل بصراحة، عملاً تجسسياً على حساب العرب. وهذا كله يجعل من الصعب عدم اعتبار ستوكويل متواطئاً [مع الصهيونيين] فيما يتعلق بسقوط حيفا.

ومن دون شك، فإن موقف ستوكويل رفع معنويات الصهيونيين، فقاموا بمضاعفة جهودهم. وبحلول الساعة السادسة صباحاً كان الوضع قد تدهور إلى حد كارثي، وخصوصاً في وسط المدينة. وعلى حد وصف ساكر، فإن "أشد القتال احتداماً كان ذاك الذي دار من أجل السيطرة على بناية الخوري. وقد اضطر اليهود، في النهاية، إلى إحراق البناية قبل أن ينسحب منها آخر المدافعين العرب" (p. 243).

وفي الوقت ذاته الذي سقطت بناية الخوري (نحو الساعة السابعة صباحاً) احتل مركز الهاتف، واستغل الصهيونيون إلى أقصى حد أجهزة مركز الهاتف لإشاعة مزيد من الفوضى. وسقط حيّ الحليصة بعد فترة وجيزة، واستطاع الطابور الأيمن أن يتحرك بموازاة الآخرين عبر وادي رشميا، وأصبح العرب، نحو ٥٠,٠٠٠ منهم، محشورين الآن في المدينة القديمة، والتقى الطابوران الأوسط والأيسر في شارع ستانتون، وبدأ تقدم الطابور المنطلق من المركز التجاري يكتسب زخماً.

في الساعة السادسة صباحاً اتصل السعد بحاكم اللواء البريطاني المستر لو (Law)، وطلب منه استخدام نفوذه لدى السلطات العسكرية لإرسال عدد من سيارات الإسعاف، إذ كان عدد المصابين العرب قد بلغ نحو ٣٠٠ شخص،<sup>٧</sup> لكن الطلب رُفض. وبحلول الساعة العاشرة كانت المدينة القديمة في حالة مريضة من الاضطراب والفوضى، وكان اللاجئون الهاربون من أمام الطوابير العسكرية المتقدمة يتقاطرون إلى المدينة القديمة: أطفال بالبيجامات، رجال بقمصان النوم وثياب تحتية، ونساء يحملن أطفالاً رضعاً وصرراً تحتوي على أغراض منزلية. وكانت قذائف الهاون تتساقط على المنطقة طوال الوقت. وكى يحصل المرء على فكرة عن الازدحام، يجب تذكر أن المسافة بين شارع ستانتون وشارع الملوك كانت نحو ٥٠٠ ياردة فقط. ويصف شاهد عيان، هو عصام طه، المشهد في المدينة القديمة كما يلي:

وفجأة جاء خبر يقول إن الجيش البريطاني يحتل منطقة الميناء وإنه مستعد لحماية من يلتجئ إلى هذه المنطقة، وهكذا اضطررنا جميعاً للاتجاه نحو منطقة الميناء متسللين خلال الشوارع الضيقة الباقية في أيدي العرب والمؤدية إلى هذه المنطقة، وكان في مرورنا من هذه الأزقة الضيقة عذاب شديد إذ كانت المئات من الناس تتراحم على المرور كل يبغى النجاة لنفسه ولأطفاله، وكم من الأطفال والنساء والشيوخ سقطوا مغشياً عليهم فداسهم الآخرون، فكان الناس كأنهم في



يوم الحشر، وفي أثناء هذه الحالة يأتي خبر مفاده أن اليهود قد وصلوا "ساحة الجرينة"، ومعنى ذلك أنهم قد احتلوا الطريق المؤدية إلى الميناء، ولن يستطيع أحد من العرب المرور إلى تلك المنطقة، وهكذا عادت الجماهير أدراجها من حيث أتت بعد أن عمّ الفزع والخوف بين الجميع، فكنا لا نسمع إلا الصراخ والعيول، والدعوات إلى البارئ عز وجل ترتفع إلى عنان السماء. ساعة يا لها من ساعة... وما هي إلا دقائق حتى جاء نبأ آخر يقول إن الطريق لا تزال مأمونة، وإنه يمكن المرور عبرها، وهكذا عاد الناس إلى طريقهم الأول [...] ووصلنا إلى باب الميناء حيث كانت تقف ثلة من البوليس الإنجليزي حملت الأولاد الصغار وساعدت في نقلنا إلى القوارب الراسية في الميناء، وكان هجوماً حامياً على القوارب سقط على أثره كثيرون إلى الماء بدل القوارب.<sup>٥٨</sup>

ورأى شاهد عيان آخر، هو عبد العال القزق، الأعلام الصهيونية تظهر "هنا وهناك" على أسطح البيوت العربية، بينما كان الصهاونيون يتقدمون أكثر فأكثر.<sup>٥٩</sup>

### محاولة فرض شروط الهاغانا للاستسلام

على هذه الخلفية، تألفت لجنة طوارئ من خمسة من وجهاء العرب لإجراء مقابلة مع ستوكويل، والتي تأخرت ساعة (حتى العاشرة صباحاً) بسبب صعوبة الوصول إلى مقر قيادته. فعلاوة على فريد السعد ضمت اللجنة الياس كوسا (محام)؛ جورج معمر (محام)؛ فيكتور خياط (مواطن أميركي من أصل عربي وقنصل إسبانيا الفخري في حيفا)؛ أنيس نصر (قاضي في المحكمة اللوائية). ورفض ستوكويل استلام المذكرة التي أعدها الوجهاء العرب في الليلة الفائتة في منزل السعد. وبحسب السعد، قال ستوكويل "إنه لن يتدخل لوقف القتال، ولن يسمح للتعزيزات العربية من الخارج [بالوصول] إلا إذا قبل العرب مبدأ الهدنة".<sup>٦٠</sup> فطلب المندوبون العرب من ستوكويل تأكيد قوله خطأ، وفعل ذلك. وفيما يلي نص التأكيد الخطي الذي وقّعه العرب الخمسة وأضاف ستوكويل توقيعه إليه:

نحن الموقعين أدناه اجتمعنا اليوم بحضور الميجر جنرال ستوكويل والبريغادير جونسون وحاكم اللواء والقنصل البريطاني وطلبنا من قائد الجيش أن يستعمل نفوذه لمساعدة العرب ووقف الهجوم اليهودي، فأجاب أنه غير مستعد للاستخدام بأحد الفريقين المتحاربين وأنه لن يسمح للقوى العربية المسلحة بدخول المدينة لمساعدة السكان العرب وأنه مستعد فقط للقيام بالتوسط للصلح إذا قبل العرب مبدئياً بشروط الهدنة.. وبعد توقيع الوثيقة طلب الوفد العربي منه معرفة شروط الهدنة فطلب إمهاله قليلاً فذهب وعاد بعد عشر دقائق يحمل ورقة عليها شروط قيادة الهاغانا لعقد الهدنة وهي عشرة شروط.<sup>٦١</sup>



والشروط هي الآتية بنصّها الأصلي:<sup>٦٢</sup>

- ١ - تسليم جميع المهمات العسكرية العربية من سيارات حربية وأسلحة وكل أدوات القتال.
  - ٢ - أن يجري تسليم ذلك في مدة لا تتجاوز الثلاث ساعات بالمراكز التالية: جسر شل، ملتقى شارع ستانتون بالبرج، ساحة الخمرة، ملتقى شارع يافا بالمركز الجديد.
  - ٣ - تسليم جميع الذكور من الغرباء لترحيلهم خلال مدة أربعة وعشرين ساعة تحت إشراف الهاغانا.
  - ٤ - تسليم جميع النازيين الأوروبيين الموجودين في صفوف العرب.
  - ٥ - تسليم ما ذكر في الشرط الأول يكون للجيش البريطاني ولكن تحت إشراف الهاغانا على أن يسلمها فيما بعد وقبل ١٥ أيار [مايو] ١٩٤٨ لقوات الهاغانا.
  - ٦ - إعلان نظام منع التجول داخل منطقة المدينة لمدة أربع وعشرين ساعة يجري خلالها تفتيش المنازل العربية عن السلاح.
  - ٧ - محاكمة كل شخص توجد بحيازته أسلحة بعد ذلك الوقت.
  - ٨ - إزالة جميع الحواجز المقامة في الشوارع المؤدية للأحياء العربية ليتيسر المرور إلى جميع أنحاء المدينة.
  - ٩ - بعد انتهاء نظام منع التجول تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي في المدينة ويصبح العربي مواطناً له ما لكل مواطن يهودي.
  - ١٠ - أي اجتماع آخر بين الفريقين يجب أن يكون بدار البلدية بحيفا.
- وطلب من الوفد الاطلاع على هذه الشروط والتوقيع عليها، وقد حاول الوفد تخفيف شدة الشروط أو تعديلها، ولكنه لم يفلح في ذلك.

الوقت الآن قبيل الظهر بقليل. اتفق الجانبان على الاجتماع مرة أخرى في الساعة الثالثة والنصف عصراً في دار البلدية على أن يحضر الاجتماع ممثلون عن الصهيونيين. وكان القتال لا يزال مستمراً في هذه الأثناء، وكان هناك جيوب مقاومة قليلة على أطراف المدينة القديمة. واستمر تدفق اللاجئين نحو الميناء، واستمر البريطانيون في نقلهم إلى عكا من دون توقف. كانت شروط "الهدنة" تتضمن قرارات مبدئية شعرت لجنة الطوارئ بأنها لا تستطيع أن تأخذها على عاتقها. وطلب من الياس كوسا، ضابط الارتباط في اللجنة القومية الاتصال بدمشق. وفي نحو الساعة الثانية عشرة ظهراً، "سلم [كوسا] شخصياً القنصل السوري في حيفا، السيد ثابت العريس، برقية تعرض شروط الهدنة المقترحة، ووصفاً لهروب السكان العرب المذعورين، وتطلب تعليمات. ولم يصل أي شيء [رداً على البرقية] على الرغم من برقيات التذكير المتكررة."<sup>٦٣</sup>

ولمّا يُنست لجنة الطوارئ من الحصول على مشورة من دمشق،<sup>٦٤</sup> دعت جميع الشخصيات القيادية التي كانت ما زالت موجودة في المدينة إلى اجتماع عام في منزل فيكتور خياط. وحضر الاجتماع، علاوة على أعضاء لجنة الطوارئ الخمسة، كل من رجا الرئيس (مالك أراضٍ)، ومحمد اليحيى (محامٍ)، والدكتور ميشال جبارة (طبيب)، ونظمي عنبتاوي (قائمقام)،



وفؤاد خياط (مالك أراضٍ)، وجاد سويدان (تاجر)، وسعيد سويدان (تاجر)، وآخرين، وبلغ عدد المجتمعين ما ينوف على ثلاثين شخصاً. وفي الساعة الواحدة ظهراً، بعد عقد الاجتماع بفترة وجيزة، علم الحاضرون أن السلطات البريطانية أرسلت سيارتي إسعاف لنقل القتلى والجرحى (بعد ١٨ ساعة ونصف الساعة من بدء الهجوم الصهيوني). ويمكن الافتراض أن ذلك كان مكافأة على موافقة العرب على الاجتماع في دار البلدية.

وكان الجو المخيم في منزل خياط كثيباً ومنذراً بالشر. وبعد كثير من الجدل والتفكير فيما جرى اتفق على أن يحضر وفد خاص الاجتماع في دار البلدية على أمل بأن ينجح في تعديل بعض شروط الهدنة التي قدمها الصهيونيون. وتألف الوفد من أعضاء لجنة الطوارئ الخمسة علاوة على أحمد أبو زيد (متعهد أعمال في المرفأ) والشيخ عبد الرحمن مراد (مفتي حيفا). وفي الساعة الثالثة والنصف عصراً نُقل الوفد في خمس عربات بريطانية مصفحة إلى دار البلدية، حيث استُقبل بالصفير وصيحات الاستهزاء من قبل الجموع اليهودية المحتشدة عند المدخل. أما الجانب البريطاني فتمثل في الأشخاص أنفسهم الذين حضروا الاجتماع في الصباح، وعلى رأسهم الميجور جنرال ستوكويل. وقد أشار شهود عرب، وخصوصاً كوسا، إلى أن شبطاي ليفي، العضو في الوفد الصهيوني، كان الوحيد الذي أحزنه ما حلّ بالعرب.

لم تكن الدعوة إلى الاجتماع كما تصورها ستوكويل والهاغانا من أجل التفاوض للتوصل إلى تسوية، وإنما كل ما كان يُفترض بالعرب أن يقولوه هو فقط: "نعم". كان المطلوب استسلاماً غير مشروط. ووجد الوفد العربي أن من المستحيل أن يقبل بذلك. ولما تمسك العرب بموقفهم، قال ستوكويل: "إذا لم توقعوا هذه الهدنة فلن أكون مسؤولاً إذا ما قُتل غداً ٣٠٠ أو ٤٠٠ [عربي] آخرين." وسأله فيكتور خياط: "ما الذي تحاول أن تفعله؟ نحن نعرف شبطاي ليفي ويعقوب سولومون، وجميع هؤلاء الناس. نحن أصدقاء قدامى." فأجابه ستوكويل قائلاً: "إذا كنتم أصدقاء قدامى، فأنا أفهم من ذلك أنني أستطيع الانسحاب، وأن خدماتي لم تعد مطلوبة." وناشده خياط قائلاً: "إذا سمحت، جنرال"، بينما كان ستوكويل وفريقه يغادرون الغرفة (Jewish Observer, 11 September 1959, Khayyat's testimony). وفي وصفه للمشهد في دار البلدية يكتب السيد كمحي: "كان جو من السعادة والاسترخاء يغمر الحضور. اليهود كانوا فخورين، والعرب كانوا مسرورين من أن كل شيء قد انتهى، والبريطانيون كانوا قد حازوا رضى الطرفين. حدث نادر وغريب" (Seven Fallen Pillars, p. 220).

الساعة الآن الخامسة مساءً. في إثر انسحاب ستوكويل طلب الوفد العربي رفع الاجتماع ساعة ونصف ساعة.<sup>٦٥</sup> وخلال هذه الفترة، عاد الوفد إلى الاجتماع العام الذي كان ما زال منعقداً في بيت خياط. ومرة تلو أخرى عاد النقاش إلى مسألة مسؤولية بريطانيا. فالبريطانيون كانوا رسمياً مسؤولين عن عرب حيفا حتى ١٥ أيار / مايو. والموافقة على استسلام غير مشروط هو، في نظرهم، بمثابة إعفاء للبريطانيين من مسؤوليتهم من سلسلة الأحداث التي بدأت في منتصف ليل اليوم الفائت، والقبول نهائياً بالواقع الذي فرضه الصهيونيون. وكان العرب لا يزالون يأملون بأن يعود البريطانيون إلى تحمل مسؤولياتهم، وقرروا مناشدة دمشق أن ترسل توجيهاتها إليهم، لكن دمشق لم يكن لديها ما تقوله. وبحسب كوسا (Jewish Observer, 11 September 1959) "استنتجت اللجنة القومية من الصمت أن الدول العربية أذهلتها الكارثة ولا يوجد لديها جواب."



## الفرار المذعور إلى الميناء

كان لا بد من إعطاء جواب، لأن الهاغانا وستوكويل كانا ينتظران في دار البلدية. وفي هذه الأثناء، كان الطابور الصهيوني المنطلق من المركز التجاري قد شق طريقه أخيراً عبر المدينة القديمة، وانضم إلى الطابورين الآخرين. وبلغت حالة الذعر والفوضى في المدينة القديمة ذروتها القصوى، وتواصل الفرار الجماعي نحو الميناء. ووفقاً لويلسون:

بينما كان العرب يواصلون الفرار كانت المواقع اليهودية المتقدمة تتعرض لهم وتوقع بينهم عدداً من الإصابات. وقام البوليس البريطاني بعمل رائع من أجل إعادة قدر من النظام خارج السوق وللتخفيف من وقع الذعر، وسواهم في ذلك جنود البحرية الملكية في المرفأ. وقد جرح ثلاثة ضباط من الأخيرين بنيران يهودية بينما كانوا يحاولون ضبط سيل اللاجئين (p. 193).

وشرع الصهيونيون أيضاً في اعتقال الشبان [العرب] من أجل "استجوابهم"، وألقيت جثث عرب في الأحياء السكنية البعيدة الواقعة غربي شارع الكرمل، والتي لم تكن قد تأثرت بعد جزاء القتال، وذلك من أجل إخافة من تبقى من سكان الطبقة الوسطى فيها. وبحسب كوسا (Jewish Observer, 11 September 1959)، فإن القنصل الأميركي، السيد أوبري ليبينكوت، "رأى علامات سيطر على أجساد عدد من العرب". وفي داخل المدينة القديمة، نشأت مشكلة خطيرة جداً جزاء الجثث المتناثرة هناك. ويروي شاهد عيان أن فرقاً من المتطوعين العرب حفرت قبوراً جماعية للمسيحيين والمسلمين العرب بسبب صعوبة التحقق من هوياتهم. أما مشكلة الجرحى فكانت مشكلة رهيبة، ذلك بأن سيارتي الإسعاف اللتين أرسلهما البريطانيون كانتا غير كافيتين على الإطلاق. وفي منطقة الميناء، حيث كان الازدحام كثيفاً جداً، بدأت مشكلة الإيواء والإطعام والعناية الصحية بالبروز، إذ إن المرضى العرب الذين كانوا يعالجون في المستشفيات الحكومية تحاملوا على أنفسهم وغادروا المستشفيات وهم ما زالوا في بيجماتهم للانضمام إلى الجموع في منطقة الميناء.

في السابعة والنصف مساءً، عاد الوفد العربي، باستثناء الشيخ مراد، إلى دار البلدية، وكان الجنرال ستوكويل ما زال مصرّاً على أنهم يجب أن يوقعوا [وثيقة] "الهدنة". ويبدو أنه كان حريصاً جداً على أن يحصل على هذه الوثيقة. ويجوز الافتراض أنه بعدما رأى أن مأساة حيفا تجاوزت كل ما كان قد توقعه، أمل بأن تمكّنه وثيقة كهذه موقعه من قبل العرب من أن يصوّر نتائج حماقته على أنها تسوية عربية - يهودية جرى التفاوض بشأنها بين الطرفين بفضل مساعيه الحميدة (نعرف الآن كم كان وزير الخارجية بيفن ورئيس الحكومة أتلي غاضبين جداً في لندن في ذلك اليوم جزاء ما حدث في حيفا، ونعلم أن بيفن قال للفيلدمارشال مونتغمري، رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية آنذاك، إن "الجيش خذله")<sup>٦٦</sup>.

على أي حال، فإن لجنة الطوارئ العربية، بحسب كوسا (Jewish Observer, 18 September 1959):



أخبرت الجنرال والأشخاص الذين كانوا حاضرين في الاجتماع في دار البلدية أنه نظراً إلى أن العرب كانوا مذعورين ويفزّون عبر منطقة الميناء، ونظراً إلى أن الجنرال ستوكويل لا يريد التدخل، فإن كل ما يستطيعون فعله هو أن يطلبوا من الجنرال اتخاذ الخطوات الضرورية لتأمين وسائل نقل كافية لهؤلاء الناس ولأغراضهم المنزلية، والسماح لهم بالذهاب إلى أقطار عربية.

وجرى توجيه هذا الطلب بمبادرة من الأشخاص الخمسة المعنيين الذي عيّنوا أنفسهم بأنفسهم، ولم يكونوا يتصرفون بموجب أي أوامر أو تعليمات من دول عربية، أو أي جهة أخرى. لقد رفضت السلطات البريطانية التدخل، ولم يكن متاحاً لنا أي وسيلة للاتصال شخصياً بالسلطات العربية لتلقّي تعليمات واضحة، بل إن القنصلين السوري والمصري رفضا إعطاءنا أي نصيحة. وهكذا، تعيّن علينا، عفو اللحظة، أن نجد طريقاً للخروج من الوضع الذي زجّنا ستوكويل فيه: فيما أن نقبل بالهدنة، وإما أن يُقتل ٣٠٠ أو ٤٠٠ عربي. واعتقدنا أن الطريق الوحيدة هو أن نطلب من الجنرال تزويدنا بثمانين شاحنة يومياً لنقل ممتلكاتنا، لكننا كنا نعرف جيداً أنه لن يتمكن من تزويدنا بوسائل النقل هذه، وأملنا بأن يستعيد في آخر الأمر السيطرة على المدينة، ويطرد قوات الهاغانا من الأحياء العربية التي احتلتها، وأن يمكّن العرب المذعورين المحتشدين في منطقة الميناء من العودة إلى بيوتهم. إلا إنه لم يفعل ذلك، فاستمر الهروب.

تجول كمحي في السوق العربية في ذلك اليوم: "تجولت لاحقاً في السوق ورأيت [آثار] الاضطراب الذي أصاب العرب ودفعهم إلى ترك بيوتهم من دون أن يأخذوا الفضة والمقتنيات الثمينة التي كان في استطاعتهم أن يحملوها بأيديهم" (Seven Fallen Pillars, p. 220). هذا هو ما يدعي الصهيونيون أنه سياسة مدروسة تبنّتها الجامعة العربية والهيئة العربية العليا لإجلاء عرب فلسطين كجزء من استراتيجيا رسماها بعناية لتسهيل دخول الجيوش العربية النظامية مع نهاية الانتداب البريطاني!



## المصادر

- ١ القارئ المهتم يمكنه الرجوع إلى مقالة المؤلف "عودة إلى خطة دالت" وملاحقها، بما في ذلك النص الكامل لخطة دالت (المنشورة بالإنجليزية لأول مرة) والأوامر العملائية لألوية "سلاح الميدان" ("حيس"): Walid Khalidi, "Plan Dalet Revisited", *Journal of Palestine Studies*, vol. XVIII, no. 1 (Autumn 1988), pp. 4-19, 24-38.
- أما المقالة الأصلية، من دون الحواشي، فنشرت أولاً في *Middle East Forum*, November ١٩٦١.
- ٢ الوكالة اليهودية كانت أعلى هيئة سياسية يهودية، وشريكة بريطانية، بموجب صك الانتداب، في تأسيس وطن قومي لليهود.
- ٣ Dan Kurtzman, *Genesis 1948* (London: Valentine Mitchell, 1972) pp. 152-153.
- ٤ Ibid.
- ٥ Ibid.
- ٦ Netanel Lorch, *The Edge of the Sword* (London and New York: G. P. Putnam's Sons, 1961), p. 98.
- ٧ M. Eldar, *Shajetet 13* [in Hebrew], in *English Flotilla 13: the Story of Naval Commandos* (Tel Aviv, 1993), pp. 130-131, quoted in F. Liebreich, *Britain's Naval and Political Reaction to the Illegal Immigration of Jews to Palestine 1945-1946* (London: Routledge, 2005), p. 333.
- ٨ من الآن فصاعداً ستكون الإشارة إلى كتاب موريس: *The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited* طبعة سنة ٢٠٠٤.
- ٩ Walid Khalidi, "Selected Documents of the 1948 Palestine War," *Journal of Palestine Studies*, vol. XXVII, no. 3 (Spring 1998), pp. 86-93, 95-97, 98-99.
- ١٠ انظر المقالة الرئيسية أدناه.
- ١١ من أجل سرديّة موريس، وتلفيق طلب الاستلام، انظر: Morris, op. cit., 2004, pp. 190 والصفحات التي تلي.
- ١٢ من أجل مذكرة اللجنة القومية بتاريخ ٢٢ نيسان / أبريل انظر: Khalidi, "Selected Documents of the 1948 Palestine War," op. cit., *JPS* XXVII, no. 3, pp. 90-92.
- ١٣ من أجل تهديد ستوكويل، انظر: Ibid., pp. 95-97.
- ١٤ من أجل رفض ستوكويل منح مهلة، انظر: Ibid.
- ١٥ لا يذكر موريس هذا الإعلان المهم الذي يقتبسه مراد (عبد الرحمن مراد، "صفحات عن حيفا"، دمشق: ١٩٩١، ص ٩٦): "بناء على الصلاحيات التي حُوِّلَتْها، وبمصادقة القيادة العليا، أعلن قيام حكم عبري مستقل في مدينة حيفا. إن الهاغانا العبرية التي هزمت العدو العربي وتسيطر على المدينة بأسرها تشكل السلطة المعتمدة الوحيدة في حيفا إلى أن تقيم اللجنة التنفيذية لمجلس الشعب سلطة دائمة في المدينة. موشيه كارمل قائد كتيبة الكرم." والنص مأخوذ من المصدر العربي.



- ١٦ من أجل مناشدة اللجنة القومية الخاصة بعودة المطرودين، انظر: Khalidi, "Selected Documents of the 1948 Palestine War," op. cit., JPS XXVII, no. 3, pp. 98-99.
- ١٧ Zadok Eshel, *Haganah Battles in Haifa* [in Hebrew] (Tel Aviv: Ministry of Defense, 1978), pp. 65-66.
- ١٨ Ibid., pp. 69-70.
- ١٩ Ibid.
- ٢٠ انظر المقالة الرئيسية أدناه.
- ٢١ سفر الخروج، إصحاح ١٢، آية ١٥. والتشديد من الأصل.
- ٢٢ *The Boston Globe*, 20 April 1997.
- ٢٣ يؤكد لورخ (op. cit., p. 98) جازماً أن عملية مسبراييم كانت "من أجل احتلال مدينة حيفا".
- ٢٤ Morris, op. cit., 2004, pp. 188-189.
- ٢٥ إن بطلان ادعاء موريس أن إطلاق اسم "حميئس" على هجوم حيفا حدث ارتجالاً تؤكد حقيقته أن قيادة الهاغانا كانت قد خططت لعملية تحمل الاسم نفسه ويجري تنفيذها في ٢٢ نيسان / أبريل بهدف احتلال جميع القرى العربية المحيطة بحيفا وتطهيرها، الأمر الذي يدل بوضوح على طبيعة نيات الهاغانا المبيتة لحيفا ويافا وفقاً لخطة دالت.
- ٢٦ Morris, op. cit., 1987, p. 197 والصفحات التي تلي.
- ٢٧ Morris, op. cit., 2004, p. 197 and pages following; p. 269 footnote 95; p. 278 footnote 233.
- ٢٨ مع اتساع رقعة القتال وانهيار القانون والنظام العام في فلسطين في أعقاب قرار التقسيم الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في تشرين الثاني / نوفمبر، بدأت الإدارة الأميركية في أواخر شباط / فبراير بالنأي عن هذا "الحل" لمصلحة إقامة وصاية للأمم المتحدة على فلسطين عندما ينتهي الانتداب.
- ٢٩ شعرت القيادة الصهيونية، في فلسطين والولايات المتحدة، بالانزعاج الشديد مما بدا أنه تراجع للولايات المتحدة عن [تأييد] التقسيم. وفي ٤ شباط / فبراير ١٩٤٨، وصل حاييم وايزمن، الزعيم الصهيوني البريطاني المحنك الذي أصبح لاحقاً أول رئيس لإسرائيل، إلى الولايات المتحدة للالتقاء بالرئيس ترومان لتدعيم تأييد الولايات المتحدة للتقسيم. وكان ترومان قد تملكه الغضب الشديد من تكتيكات الضغط المفرط الذي مارسه المؤسسة الصهيونية الأميركية في أوائل سنة ١٩٤٨، ورفض بإصرار مقابلة أي زعيم صهيوني، بمن في ذلك وايزمن. لكن تدخل صديقه القديم وشريكه في الأعمال إيدي جاكوبسون شخصياً أقنعه في آخر الأمر بمقابلة وايزمن (سراً) في ١٨ آذار / مارس في البيت الأبيض. وكتب ترومان في وقت لاحق: "عندما غادر [وايزمن] مكتبي شعرت بأنه تفهم تماماً سياستي، وأنني عرفت ما يريد". ولأن ترومان لم يخبر وزير خارجيته، الجنرال جورج سي. مارشال، بشأن المقابلة، فإن مندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة أعلن في ذلك اليوم بالذات السياسة الجديدة بشأن الوصاية، والتي كان ترومان قد أقرها، وطلب من مجلس الأمن تعليق العمل على مشروع التقسيم والدعوة إلى عقد جلسة خاصة للجمعية العامة للعمل



على مشروع الوصاية. ومع أن ترومان كان قد أعطى موافقته المسبقة على ذلك، إلا إنه استشاط غضباً، وقال: "لا أفهم هذا. كيف حدث ذلك. لقد أكدت لوايزمن... لا بد أنه يعتقد الآن أنني شخص حقير." انظر: David McCullough, *Truman* (New York: Simon and Schuster, 1992), pp. 598-612; Meyer W. Weisgal and Joel Carmichael, *Chaim Weizmann: A Biography by Several Hands* (London: Weidenfeld, and Nicolson, 1962), pp. 282-301, 304-306.

٣٠ نعرف الآن أن عملية نحشون كانت افتتاحية خطة دالت. وكان الممر بين تل أبيب والقدس الذي من المقرر أن تشقه العملية يمر عبر منطقة آهلة بالعرب، ومخصصة للدولة العربية بموجب قرار التقسيم الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة. وقد نُفذت الهجمات بالتزامن انطلاقاً من [طرفي الممر] تل أبيب والقدس. وبالقرب من الطرف الثاني، حدثت المعركة الحاسمة (٣ - ١١ نيسان / أبريل) على قرية القسطل، المجاورة لدير ياسين.

٣١ قادت الإرغون الهجوم، مع حليفاتها عصابة شتيرن، لكن الهاغانا قدمت لهما دعماً لوجستياً وقتالياً. انظر كتاب "دير ياسين" للمؤلف وليد الخالدي (بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩)، Yehuda Slotzky, *Sefer Toldot HaHaganah* (Tel Aviv, 1972)، p. 1560 and pages following.

٣٢ العملية معروفة أكثر باسم "يَفْتاح" (وتعني حرفياً: هو يفتح)، وهو محارب توارتي. وقد نفذت قوات البالماخ (القوة الضاربة للهاغانا) العملية، التي هي أيضاً جزء من خطة دالت، وكانت محصلتها تطهير قضائي طبرية وصفد اللذين كانا يشتملان على نحو ١٠٠ قرية عربية تطهيراً كلياً. انظر: وليد الخالدي، "كي لا ننسى قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة ١٩٤٨ وأسماء شهدائها" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١، ط ٣، ص ٢٧٢ - ٤٢٩).

٣٣ يعترف المؤلف هنا بأنه أخطأ في تقويم شخصية رشيد الحاج إبراهيم، وأنه استدرك لاحقاً خطأه بتحرير مذكرات هذه الشخصية المدهشة وينشرها مع مقدمة طويلة. انظر: "الدفاع عن حيفا وقضية فلسطين: مذكرات رشيد الحاج إبراهيم ١٨٩١ - ١٩٥٣" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٥). وأيضاً، فإن عمر الحاج إبراهيم في سنة ١٩٤٨ لم يكن ٦٢ عاماً وإنما ٥٨ عاماً.

٣٤ حضرت الحكومة البريطانية اللجنة العربية العليا في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٧، وأعيد تأليفها برئاسة الحاج أمين الحسيني تحت اسم الهيئة العربية العليا. وكان الحاج أمين قد فرّ من فلسطين في سنة ١٩٣٧ لتفادي اعتقاله من قبل السلطات البريطانية والتجأ إلى دول المحور، وعاد إلى الشرق الأوسط في سنة ١٩٤٦ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولما كان غير قادر على العودة إلى فلسطين فقد نشط من القاهرة، ونشط أيضاً خلال حرب ١٩٤٨ من مكتبتي الهيئة العربية العليا في بيروت ودمشق.

٣٥ دائرة التحقيقات الجنائية، وهي المعادل البريطاني للـ FBI في الولايات المتحدة.

٣٦ يجب عدم الخلط بين هذه القوة وبين "الفيلق الأردني" (The Arab Legion) الذي كان يُعرف بـ "الجيش العربي"، والذي كان البريطانيون يقودونه ويمولونه. فـ "قوة الحدود" كانت قوة درك من الفلسطينيين العرب أنشأها البريطانيون لحراسة الحدود مع شرق الأردن.



- Walid Khalidi, "Why Did the Palestinians Leave", Reprinted in *Journal of Palestine Studies*, vol. XXXVI, no. 2 (Winter 2005), pp. 42-54. ٣٧
- Jon Kimche, *Seven Fallen Pillars* (London, 1950), pp. 219, 221; Harry Sacher, *Israel: The Establishment of a State* (London, 1952), p. 44. ٣٨
- Khalidi, "Why Did the Palestinians Leave", op. cit., pp. 42-54. ٣٩
- Ibid. ٤٠
- ٤١ التشديد في هذا الاقتباس، وفي جميع الاقتباسات الواردة في النص هي من المؤلف.
- ٤٢ من أجل النصوص الكاملة لجميع البيانات، انظر الحاج إبراهيم، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٣ - ٣٥٦.
- ٤٣ من أجل البراميل المحشوة بالمتفجرات، انظر المقدمة.
- ٤٤ البيان رقم ٨ و ٩ ظهرا في اليوم نفسه.
- Harry Levin, *Jerusalem Embattled: A Diary of the City Under Siege* (London: Victor Gollancz, 1950). ٤٥
- ٤٦ الإشارة هنا إلى الإرغون وعصابة شتيرن.
- ٤٧ تاريخ هذه المادة في اليوميات هو ١٤ أيار / مايو ١٩٤٨. وحقيقة أن الهاغانا والقوات البريطانية كانتا تسيّران دوريات مشتركة عشية الانسحاب البريطاني تؤكد مدى التواطؤ بين الطرفين.
- R. D. Wilson, *Cordon and Search* (Aldershot, U.K.: Gale and Polden, Ltd., 1949). ٤٨
- Menachem Begin, *The Revolt* (New York: Schuman, 1951). ٤٩
- ٥٠ كان كمحي على اطلاع جيد بما كان يجري بحكم صلتة الوثيقة جداً بالهاغانا وقيادة اليشوف.
- ٥١ رافق النقيب عز الدين إلى الاجتماع نائبه، يونس نفاع، وجورج معمر، وهو مالك أراضٍ بارز وضابط الارتباط العربي مع الجيش البريطاني. انظر: مراد، مصدر سبق ذكره، ص ٨١.
- Sacher, op. cit. ٥٢
- Kimche, op. cit. ٥٣
- ٥٤ في حماسته لإثبات جبن عز الدين، جادلني موريس (Morris, op. cit., 2004, pp. 192-193) بإصرار في دوافع عز الدين بشأن المغادرة إلى دمشق. فهو يقبل على علاقته خبراً بثته إذاعة الهاغانا بالعربية (خدعة من خدع الحرب النفسية) في ٢٢ نيسان / أبريل، وفحواد أن يونس نفاع، نائب عز الدين، قرّر من المدينة. ويبدو أن موريس لا يعرف أن عز الدين حاول العودة إلى حيفا مع تعزيزات (مراد، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣). فمراد، مفتي حيفا، ينتقد مغادرة عز الدين، لكنه يعزوها إلى "خطأ في التقدير" (مراد، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣)؛ ويشيد مراد ورشيد الحاج إبراهيم (الحاج إبراهيم، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٩) بسلوك نفاع وشجاعته في أثناء غياب عز الدين.



- ٥٥ إن مجرد الدعوة إلى مناسبة اجتماعية، والموجهة إلى الشخصيات القيادية في حيفا في فترة الانتداب، يبين كم كانت القيادة العربية غير واعية بما كان مخبأً لها.
- ٥٦ Arthur Koestler, *Promise and Fulfillment: Palestine 1917-1949* (London: Macmillan, 1949).
- ٥٧ إن الميجور ر. د. ويلسون (Wilson, op. cit., p. 193) يقدر الضحايا العرب بـ ١٠٠ قتيل و ٢٠٠ جريح، والضحايا اليهود بـ ٢٠ قتيلاً، و ٤٠ جريحاً.
- ٥٨ محمد نمر الخطيب، "من أثر النكبة" (دمشق: المطبعة العمومية، ١٩٥١)، ص ٢٧٦.
- ٥٩ المصدر نفسه، ص ٢٧٨.
- ٦٠ وفقاً لساكر، فإن ستوكويل نفسه أشار إلى الترتيبات المتصورة بصفتها استسلاماً. انظر الاقتباس من ساكر أعلاه (Sacher, op cit., p. 253). ويعترف موريس أيضاً بأن [كلمة] "الهدنة" كانت تعبيراً ملطفاً لتسوية الاستسلام. انظر: Morris, op. cit., 2004, p. 277, note 217.
- ٦١ من أجل النص الكامل انظر: "The Fall of Haifa", in Khalidi, "Selected Documents of the 1948 Palestine War", *Journal of Palestine Studies*, vol. XXVII, no. 3 (Spring 1998), p. 93.
- ٦٢ من أجل النص الكامل للشروط، انظر: Ibid., pp. 93-95.
- ٦٣ هذه فقرة من رسالة بتاريخ ١٥ تموز / يوليو ١٩٥٦ أرسلها كوسا إلى كمحي [رئيس تحرير الـ *Jewish Observer*] رداً على مقالة عن حيفا نشرها كمحي، لكن هذا الأخير لم ينشرها في ذلك الوقت. ومن المثير للاهتمام أنه حذف من الرسالة التي أرسلها له كوسا بتاريخ ٢٩ آب / أغسطس ١٩٥٩ - والتي نشرها في الـ *Jewish Observer* بتاريخ ١١ أيلول / سبتمبر ١٩٥٩ - الإشارة إلى رسالة كوسا السابقة [هذه الحاشية، وحدها من دون بقية الحواشي، كانت جزءاً من النص الأصلي - ملاحظة من المحرر].
- ٦٤ إن نداء الاستغاثة المرسل بواسطة القنصل السوري كان له في الحقيقة وقع كبير، لكن (حتماً) في الحقل الدبلوماسي فقط. وقد احتج الرئيس السوري لدى السفير البريطاني ونبه الحكومة اللبنانية إلى ضرورة الاحتجاج لدى السفير البريطاني في بلدها، بينما أطلع عزام باشا، الأمين العام للجامعة العربية، السفير البريطاني في القاهرة على برقية القنصل السوري، واحتج على "المذبحة" اليهودية "المستمرة" للسكان العرب في حيفا. انظر: Morris, op. cit., 2004, pp. 194-195, p. 277 note 22. وقد أحدثت هذه الاحتجاجات تأثيراً في أعلى المستويات في الحكومة البريطانية في لندن (انظر الحاشية ٦٠)، لكن التطورات على الأرض في حيفا كانت أسرع من إمكان أي تدخل في الوقت الملائم.
- ٦٥ لقد أخطأ المؤلف هنا، فما طلبه الوفد كان مهلة ٢٤ ساعة، التي رفضها ستوكويل، أما الساعة ونصف ساعة فكانت هي ما وافق عليه. وهذا ما ورد في شهادة مراد (مراد، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥)، وهو الشخص الذي أصر في اجتماع دار البلدية على مهلة ٢٤ ساعة.



٦٦ استاء الفيلد مارشال مونتغمري من ملاحظة بيفن إلى حد دفعه إلى أن يطلب سحب "الإهانة" رسمياً. إن بيفن، على حد قول مونتغمري، "هو الذي تسبب بإيصال الأمر [فلسطين] إلى هذه البلبلة المربكة... وهو يحاول الآن أن يجعل الجيش كبش الفداء... إذا كنتم تريدون إقالتني، فلا مانع لديّ. وأستطيع أن أقول شيئاً كثيراً جداً في مجلس اللوردات بشأن معالجة الحكومة للوضع في فلسطين" انظر: *Memoirs of Field Marshall the Viscount Montgomery of Alamein* (London: Collins, 1958), p. 473.

.....

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

طرد الفلسطينيين:

مفهوم "الترانسفير" في الفكر

والتخطيط الصهيونيين ١٨٨٢ - ١٩٤٨

نور الدين مصالحة

٢٩٣ صفحة ٧ دولارات

.....

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

أرض أكثر وعرب أقل:

سياسة "الترانسفير" الإسرائيلية

في التطبيق ١٩٤٩ - ١٩٩٦

نور الدين مصالحة

٣٣١ صفحة ٨ دولارات

.....